واجب العلماء
في
قيادة الأمة

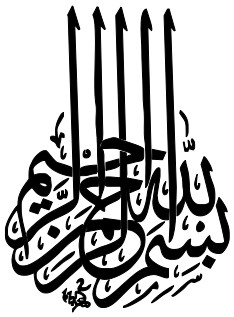

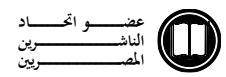

رقم الإيداع
٢٠١٧/٥٠٦٠
ترقيم دولي
978-977-794-036-8

واجب العلماء في قيادة الأمة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧ م

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

يوسف، عبد الحي
واجب العلماء في قيادة الأمة
تأليف عبد الحي يوسف
القاهرة، دار اليسر ٢٠١٧م.
١١٢ص، ١٧ × ٢٤سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٧٩٤٠٣٦٨
١ - القيادة في الإسلام
٢ - العلماء العرب
أ - العنوان
٢١٤,٣٥٥٣٣

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية، أو إليكترونية؛ أو ميكانيكية، ويشمل ذلك: التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة؛ أو أقراص مضغوطة؛ أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك: حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن
مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية
تليفون: ٠٢٢٤٧٠٩٢٦٩ محمول: ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨
فاكس: ٠٢٢٤٧١٤٨٠١ خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com
Email :alyousr@gmail.com
info@dar-alyousr.com

واجب العلماء في قيادة الأمة

تأليف

د. عبد الحي يوسف

عضو مجمع الفقه الإسلامي السوداني

محتويات الكتاب

الرسالة الأولى: دور العلماء في تعزيز الهوية والنهوض بالأمة

الرسالة الثانية: دور العلماء في النوازل المعاصرة

الرسالة الثالثة: مقام النبوة بين تعظيم المحبين وإساءة المبغضين دور علماء الأمة وفقه المواجهة

الرسالة الرابعة: سعة الفقه وأثرها في وحدة الأمة

الرسالة الخامسة: تجارب (عملية) في القيادة العلمية

مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فما زال أهل الإسلام لعلمائهم معظِّمين، وعن أعراضهم ذابِّين، ولأقوالهم مقدِّرين؛ لأنهم قد عهدوا منهم صدق الأقوال والأفعال، وعلموا أن رسول الله ﷺ قد قال: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ تَعَالَى: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ، وحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ**»(١)، وأيقنوا أن كرامة الأمة في توقير علمائها وفقهائها.

وهؤلاء العلماء- كثَّر الله سوادهم، وبارك خطاهم- قد نيطت بهم مسئوليات جسام في مواجهة تحديات تتعاظم يومًا بعد يوم، ومن ذلك:

أولًا: أن الزمان الذي نعيش فيه تتعرض فيه ثوابت الدين لخلخلة وزلزلة وبلبلة يراد من ورائها طمس المعالم وتجهيل الناس وقطع صلتهم بوحي السماء؛ حتى إن أمورًا كانت من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام صارت عرضة للقيل والقال.

ثانيًا: أن آمال جماهير المسلمين معلقة بهؤلاء العلماء الثقات في تجلية تعاليم الإسلام، وبيان أحكامه وتقرير حقائقه، دون رغبة في دنيا أو رهبة من أهلها، وقد قرؤوا في سير النبلاء وتاريخ العظماء مواقف سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وأبي حازم، وابن أبي ذئب، وابن حنبل، والعز ابن عبد السلام، والنووي،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعبد المجيد سليم، ومحمد الحامد، والطاهر ابن عاشور، وأمثالهم ممن دونت أخبارهم بحروف من نور على صفحات من ذهب.

ثالثًا: أن هذه الآمال قد تعلقت بأولئك العلماء في ظل تسلط حكام السوء في أكثر بلاد المسلمين، مع قلة النصير وضعف المعين من جمهور الناس، وتجريد أولئك العلماء من كل وسيلة يؤثِّرون بها، اللهم إلا منابرهم وأقلامهم والتي ما سلمت من عسف وقصف في كثير من الأحايين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

رابعًا: تسلط جماعات من أهل العلمنة والإلحاد يشككون الناس في أصول دينهم، وفي الوقت نفسه ينفِّسون عن مكنون صدورهم في حقدهم على أئمة الإسلام، لا يستثنون سابقًا ولا لاحقًا؛ فهم يهاجمون الأئمة الأربعة وصاحبي الصحيحين مثلما يهاجمون العلماء المعاصرين سواء بسواء، وذلك تحت دعوى محاربة الإرهاب ومواجهة التطرف، والتي صار يقتات على موائدها كل كفار أثيم!

خامسًا: وجود نابتة شيطانية في كثير من البلاد تحصر الحق في طائفة يسيرة من أهل العلم، فمن خالفهم في جليل أو حقير من أصول القضايا أو فروعها فإنهم سرعان ما يطيلون في عرضه ألسنتهم رميًا له بالضلال والإضلال، وتحذيرًا للمسلمين منه؛ بدعوى أنه قد خالف السلف!! وبعض هؤلاء الذين جعلوهم معقدًا للولاء والبراء إنما هم نكرات لم يُعرف عنهم في الإسلام بلاء، ولا في العلم بروز ولا تفوق.

سادسًا: ما يروج له أعداء الملة ممن يسوؤهم التفاف الناس حول أهل العلم ونزولهم على آرائهم، من أن هؤلاء العلماء أكلة جزور وطلاب دنيا وأحلاس سلطة، وأنهم للحكام تابعون ولمواقفهم مؤيدون!!

لكل هذا ولغيره جاءت هذه الصفحات التي قُدِّمت في مؤتمرات علمية ولقاءات دعوية مختلفة في حضور جمهرة من أهل العلم والفضل؛ من أجل تذكير العلماء بواجبهم الديني والأخلاقي، ومن أجل إبراء ذمتهم وإخلاء ساحتهم ببيان جهودهم التي يريد أهل الريبة والنفاق طمسها ومحوها.

أسأل الله تعالى أن يجعلها نافعة لمن كتبها وقرأها ودلَّ عليها؛ إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على خير المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين عبده ونبيه محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

د. عبد الحي يوسف
عضو مجمع الفقه الإسلامي السوداني

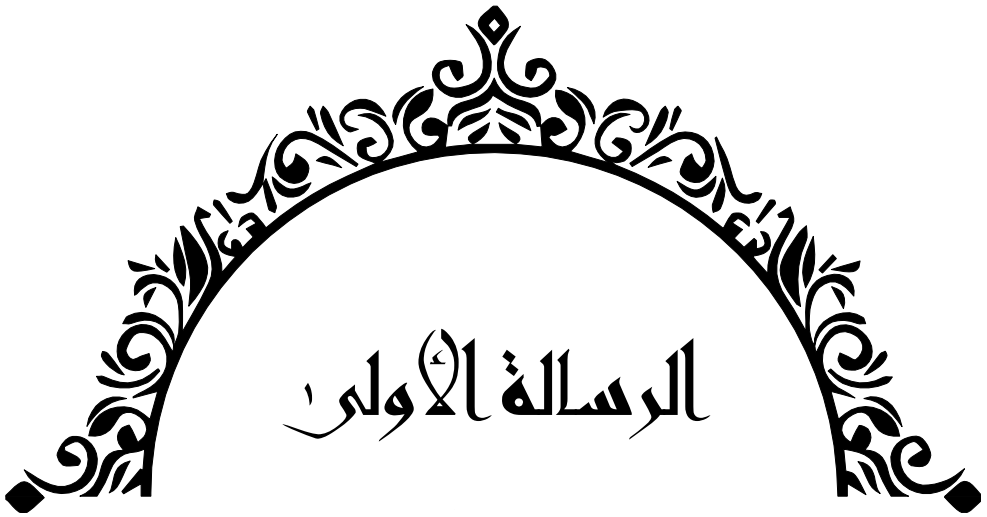

دور العلماء في تعزيز الهوية والنهوض بالأمة[1]

(١) ورقة مقدمة لمؤتمر (تحديات ما بعد الربيع العربي)، المنعقد بتاريخ (١٠-١١/ ٢/ ١٤٣٤هـ)، الموافق (٢٣-٢٤/ ١٢/ ٢٠١٢م)، طرابلس، ليبيا.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فبعد ثورات الربيع الإسلامي التي كان من ثمارها الطيبة تجديد ثقة الأمة في دينها، وإسلامها قيادتَها لمن تظن أنهم أهل الدين الحافظون لحدوده القائمون بأمره؛ لا بد أن يكون للعلماء- أهل الحل والعقد- دور مشهود في تجديد تعاليم الدين وتقوية أواصر المحبة بين المؤمنين، وإعلاء شأن القيم الحميدة والأخلاق النبيلة، بعد ما كان لهم القدح المُعَلَّى في إذكاء روح الجهاد في الأمة؛ فمنهم من أفتى بالخروج على الطاغوت، ومنهم مَن رغَّب الناس في الشهادة، ومنهم من كانت كلماتُه سوطَ عذابٍ على الجبابرة مِن عُتاة البشر؛ فألهبت حماسة المسلمين فواجهوا النيران والطغيان، حتى كتب الله لهم إحدى الحسنيين: النصر، أو الشهادة، وكانت منابرُ الجمعة مُنطلَقًا لتلك الثورات المباركة التي يَتَفَيَّأُ الناسُ ظلالَها ويرجون بركتَها.

وقد كتبتُ هذه الكلمات التي أسأل الله أن يجعلها نافعات؛ لعلها تسهم في تجلية دور العلماء في تجديد الهوية والحفاظ عليها.

وأبدأ أولًا بضبط مصطلحي لمفردات عنوان البحث:

المطلب الأول: مَنِ العلماءُ؟

ونعني بالعلماء هنا: الربانيين الذين فقهوا عن الله مراده، وحفظوا حدوده؛ ولم يشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، ويقينًا لا يدخل في هذا الحديث علماءُ السوءِ ممن هادنوا الطُّغيانَ، فنطقوا بالباطلِ وشهِدوا بالزُّورِ، وعمِلوا على تثبيط الهممِ والعزائمِ، وأرادوا للناس أن يكونوا قابعين قانعين بالذل والهوان؛ علماءُ السوءِ نعني بهم أولئك «الذين قَصْدُهم من العلمِ التنعم بالدنيا والتوصُّل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها»[(١)].

وهذه الظاهرة ليست جديدة، بل هي في كل زمان ومكان، لا يخلو الأمر من علماء باعوا دينهم بدنيا غيرهم، ولوَوا ألسنتَهم بالكتاب ليحسبه الناس من الكتاب وما هو من الكتاب، ولطالما حَدَّثَنا القرآنُ عن علماء بني إسرائيل الذين كانوا ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقد قال عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُصَوِّرًا حال أولئك، وكيف أنهم يصدون عن سبيل الله بمعسول القول وسيئ العمل: «مَثَلُ علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر؛ لا هي تشرب، ولا هي تترك الماء يخلُص إلى الزرع، ومَثَل علماء السوء كمثل قناة الخُشِّ؛ ظاهرها جَصٌّ، وباطنها نتنٌ، ومثل القبور؛ ظاهرها عامر، وباطنها عظام الموتى»[(٢)].

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (١/ ٥٩).
(٢) المصدر السابق (١/ ٦٠).

المطلب الثاني: ما الهوية؟

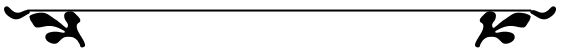

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل طائفةٍ من بني آدم لا بد لهم من دين يجمعهم؛ إذ لا غنى لبعضهم عن بعض، وأحدهم لا يستقلُّ بجلب منفعته ودفع مضرَّته، فلا بد من اجتماعهم، وإذا اجتمعوا فلا بد أن يشتركوا في اجتلاب ما ينفعهم كلهم؛ مثل: نزول المطر؛ وذلك مَحَبَّتُهم له، وفي دفع ما يضرهم؛ مثل: عدوهم؛ وذلك بُغضُهم له، وهذا هو دينهم المشترك العام، وأمّا اختصاص كلٍّ منهم بمحبَّة ما يأكله ويشربه وينكحه، وطلب ما يستره باللباس، فهذا يشتركون في نوعه لا في شخصه، بل كل منهم يحب نظير ما يحبه الآخرُ لا عينَه، بل كل منهم لا ينتفع في أكله و شربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر، بل بنظيرِه.

وهكذا هي الأمور السماوية في الحقيقة؛ فإن عين المطر الذي ينزل في أرض هذا ليس هو عين الذي ينزل في أرض هذا، ولكن غيره، ولا عين الهواء البارد الذي يصيب جسد أحدهم، قد لا يكون نفس عين الهواء البارد الذي يصيب جسد الآخر، بل نظيره، لكن الأمور السماوية تقع مشتركة عامة، ولهذا تعلق حبهم وبغضهم بها عامة مشتركة، بخلاف الأمور التي تتعلق بأفعالهم كالطعام واللباس، فقد تقع مختصة، وقد تقع مشتركة.

وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها، يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم، والأمور التي تضرهم، يحتاجون أن يحرِّموها على نفوسهم، وذلك دينهم، وذلك لا يكون إلا باتفاقهم على ذلك، وهو التعاهد و التعاقد، ولهذا جاء

في الحديث: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**»[١][٢].

ويقول الدكتور محمد إسماعيل المقدم[٣]: «الهُوِيَّةُ هي حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره، فهي ماهيَّتُهُ وما يوصفُ ويعرفُ به من صفات عقلية وجسمية، وخُلقية ونفسية، كما في حديث أم المؤمنين صفية بنت حُيَيٍّ بن أخطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كنتُ أَحَبَّ ولدِ أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقَهما قَطُّ مع ولدهما إلا أخذاني دونه، فلما قدِم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء، غدا عليه أبي وعمي مُغَلِّسِينَ، فلما يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كَالَّيْنِ ساقطَيْنِ يمشيان الهُوَيْنَى، فهششتُ إليهما كما كنتُ أصنع، فوالله ما التفتَ إليَّ واحدٌ منهما مع ما بهما من الغَمِّ، وسمعتُ عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال عمي: أتعرَّفتَه وتثبَّتَّه؟ قال: نعم، قال: فما في نفسكَ منه؟، أجاب: عداوتُه- والله- ما بقِيتُ!»[٤].

إذن فالهُوِيَّة هي: «المفهوم الذي يكوِّنه الفرد عن فكره وسلوكه اللذين يصدران عنه، من حيث مرجعهما الاعتقادي والاجتماعي» [٥].

---

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، المجموعة الثانية، دار المدني بجدة، ط ١ عام ١٤٠٥هـ، (ص ٢١٨) وما بعدها.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٨٣)، وسنده حسن.

(٣) دروس الشيخ محمد إسماعيل المقدم، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية (٤٩/ ٢).

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة النبوية (٣/ ٥٢)، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٤/ ١٨٤٣): وهو منقطع.

(٥) مجلة البيان، العدد ١٢٨، ربيع الآخر ١٤١٩هـ (ص٥٤).

وقد امتدح القرآن الكريم هذه الهوية، وأثنى عليها باعتبارات؛ منها:

- أنها أحسن قولًا، وأحسن عملًا، وأحسن قضيةً، وأحسن نسبةً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

- وهي الهوية الكاملة المَرْضيَّة من الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

- وهي صِبْغة الله، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨].

- ومِن خصائصها: الوسطية في كل شيء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

- والانتساب إليها انتسابٌ إلى خير أمة، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إن الهوية الإسلامية انتماءٌ إلى الله ﷻ، وإلى رسول الله ﷺ، وإلى عباد الله الصالحين، وأوليائه المتقين، مَن كانوا، ومتى كانوا، وأين كانوا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ﴾ [التوبة: ٧١].

المطلب الثالث: شواهد تاريخية على دور العلماء في حفظ الهوية

١- في أثناء الحملة الفرنسية على مصر كان العلماء هم الذين يوجهون الثوار، وقد فطن لذلك نابليون بونابرت- قاتله الله- فولَج للناس من باب الدين؛ وهذا هو المنشور الذي وجهه نابليون [١] للمصريين، وقد افتتحه بعبارة يقول فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه»، ثم قال: «يأيها المصريون! قد قيل لكم: إنني ما نزلتُ بهذا الطَّرَف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح لا تصدقوه، وقولوا للمغتربين: إنني ما قدِمتُ إليكم إلا لأخلِّص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك؛ أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه، والقرآن الكريم»، ثم أضاف- كاذبًا-: «أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجرنلجية وأعيان البلاد! قولوا لأمتكم: إن الفرنساوية هم- أيضًا- مسلمون مخلصون»، وفي النص الفرنسي: «محبون للمسلمين المخلصين»[٢]!!

٢- أدرك الإنجليز في أيام ثورة المصريين عليهم أنها ثورة إسلامية، ورأوا في ذلك الخطر البالغ، كما عبَّر عن ذلك اللورد اللنبي[٣] المندوب السامي في مصر

---

(١) هو نابليون بونابرت، إمبراطور الفرنسيين وحاكم فرنسا وإيطاليا، دخل في الكثير من الحروب في أوروبا وغيرها، وأحرز انتصارات باهرة، بدأ نجمه بالأفول بعد غزوه لروسيا عام ١٨١٢م، وآل أمره إلى الهزيمة والنفي، ثم الوفاة عام ١٨٢١م.

(٢) واقعنا المعاصر، للأستاذ محمد قطب (١٨٧).

(٣) هو اللورد إدموند ألنبي، كان حاكمًا لمصر من قبل الإنجليز، وقاد قوات الإنجليز المنطلقة من

بقوله: «إن الثورة تنبع من الأزهر، وهذا أمر له خطورته البالغة... أفرجوا عن سعد زغلول[١]، وأعيدوه إلى القاهرة»[٢].

٣- تولى العلماء وأهل الدين أمر جهاد الإنجليز في السودان، بقيادة محمد أحمد المهدي[٣]؛ حتى تَوَّجوا ذلك بقتل المندوب الإنجليزي (غوردون)[٤]، ثم هزيمة الحملة الإنجليزية بقيادة (هكس باشا)[٥][٦].

=

مصر في الحرب العالمية الأولى، واستولى على سوريا وفلسطين، وكان من أخطر أعماله: اهتمامه بلورانس العرب، ودعمه بعشرين ألف جنيه استرليني شهريًّا؛ ليفسد ذات بين المسلمين ويدمر قوتهم من الداخل، مات بعد عودته إلى إنجلترا عام ١٩٣٦م.

(١) سعد (باشا) ابن إبراهيم زغلول: زعيم نهضة مصر السياسية، وأكبر خطبائها في عصره، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني، فلازمه مدة، واشتغل بالتحرير في جريدة الوقائع المصرية مع الإمام الشيخ محمد عبده، سنة ١٢٩٨ هـ، انفرد بقيادة الحركة الوطنية وتنظيمها ما بين سنتي ١٩١٩م و١٩٢٧م، فكان رجل مصر، ولسانها، توفي بالقاهرة ١٩٢٧م.

(٢) واقعنا المعاصر، للأستاذ محمد قطب (ص٣٤٩).

(٣) محمد أحمد بن عبد الله، المهدي السوداني: ثائر، كان لحركته أثر كبير في حياة السودان السياسية، وتلقب سنة ١٢٩٨هـ (١٨٨١م) بالمهدي المنتظر، وكتب إلى فقهاء السودان يدعوهم لنصرته، وفي سنة ١٣٠٢هـ انقاد السودان كله للمهدي، ولكنه لم يلبث أن مات بالجدري في (أمدرمان)سنة ١٨٨٥م.

(٤) هو اللواء تشارلز جورج غوردون، كان حاكمًا للسودان من قبل الإنجليز الذين منوا بهزائم ثقيلة ومتتابعة على يد الثورة المهدية، حتى انتهى بهم الأمر إلى حصار الخرطوم واقتحام القصر، وقتل غوردون في ساحة قصره عام ١٨٨٥م.

(٥) هكس باشا، هو قائد إنجليزي خدم في الجيش الهندي- المستعمرة من إنجلترا-، ثم انتقل إلى مصر ثم السودان، وقاد حملة ضخمة للقضاء على الثورة المهدية وفك الحصار عن مدينة الأبيض التي يحاصرها الثوار، تعرض جيشه للعطش في الطريق حيث تولى أنصار المهدي ردم الآبار، وتعمدوا إرهاق الجيش في طريقه حتى انقضوا عليه في منطقة شيكان، وأبادوا معظمه في انتصار تاريخي عام ١٨٨٣م.

(٦) لست معنيًّا ها هنا بيان ما كان عليه المهدي في بعض منشوراته مِن خطأ بيِّن، حين أحرق كتب المذاهب =

٤- في ليبيا كان العلماء وأهل الدين- بقيادة عمر المختار[١]- على رأس الأمر في جهاد الصليبيين الطَّليان، وسجلوا في ذلك أروع الملاحم وأعظم البطولات مما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء.

٥- تعرضت بلاد المسلمين في البوسنة والهرسك للاحتلال النمساوي، والاحتلال الصربي (المملكة اليوغسلافية)، ثم الاحتلال النازي (الكروات) و(الشيوعيين)، وقد كان علماءُ تلك البلاد حكماءَ في تعاملهم مع تلك الأحوال كلها؛ وكان هدفهم الحفاظ على الإسلام، وفي دستور المشيخة الإسلامية [٢] إشارة إلى ذلك، فقد جاء فيه: «إننا سنبقى على هذا الحال إلى أن تُعاد مؤسسة الخلافة في الأمة الإسلامية، وحالما تعاد مؤسسة الخلافة نحن سننضم إليها بدون أي نقاش. لماذا؟ لأننا نُحِسُّ- بموجب ديننا الإسلامي- أننا جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، ونحن في هذه المناسبة أكدنا وذكَّرنا أوربا أننا مستقلون في شؤوننا الدينية، بموجب وجودنا الجغرافي في القارة الأوربية، ولكن لنا الحق، ومُصِرُّون على أن تعلم أوربا أننا منتمون للأمة الإسلامية وليس لغيرها، وأننا جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، لها علينا واجبات، ونحن

=

الأربعة، وزعم لنفسه أنه المهدي المنتظر، وأنه لن يُقبض حتى يدخل مكة والمدينة فاتحًا... إلخ.

(١) عمر بن مختار بن عمر المِنفِي: أشهر مجاهدي طرابلس الغرب في حربهم مع المستعمرين الإيطاليين. نسبته إلى قبيلة «المِنفة»، ولما احتل الطليان مدينة بنغازي سنة ١٣٢٩هـ، كان في طليعة الناهضين للجهاد، وطالت الحرب، وتتابعت المعارك، قُتل شنقًا سنة ١٩٣١م، في مركز «سلوق» ببنغازي، وأخباره كثيرة، بعضها مدوَّن. وممن رثاه: الشاعران شوقي، ومطران.

(٢) هي مؤسسة إسلامية تمثل السلطة الدينية العليا للمسلمين في البوسنة، وتم تأسيس المشيخة الإسلامية ومكتب رئيس العلماء في ١٧ أكتوبر ١٨٨٢م.

ملتزمون بتبعات انتمائنا إليها؛ هذا لا يمنعنا أن نشترك مع أوربا في علاقات مختلفة؛ لأننا نعيش في القارة الأوربية، ونعيش ونمارس ونطبق الثقافة الإسلامية؛ لأن الشمس لا تزال تبزغ من الشرق»[١].

وقد كان الخطباء والأئمة وطلاب العلم الشرعي في مقدمة مَن تصدَّى لعمليات الإبادة، وقُتل عدد كبير من الأئمة والطلاب في أثناء العدوان، كما أدى الأئمة دورًا بارزًا في الحفاظ على هُوية المسلمين من خلال نشاطاتهم في محيط المُهَجَّرِين في دول الجوار والعالم، سواء الذين بعثتْهم المشيخة للإقامة بين المُهَجَّرين، أو الذين كانت ترسلهم في المناسبات، كما أدت المشيخة دورًا كبيرًا في إيصال الغذاء والأدوية إلى المحتاجين عن طريق مؤسسة المرحمة التابعة لها بالتعاون مع الهيئات الإغاثية الإسلامية، وأدت المشيخة دورًا كبيرًا في التعريف بقضية البوسنة في العالم الإسلامي وغيره، من خلال الاتصالات التي كانت تجريها بالتنسيق مع الحكومة البوسنية[٢].

٦- عندما ظهرت بوادر الغزو الثقافي لبلاد المسلمين، وظهر من بني جِلدتنا مَن يطعن في الدين ويدعو للسَّير في ركاب الكافرين؛ كتب طه حسين[٣]: «علينا

(١) دور الفتوى في الحفاظ على الهوية الإسلامية في البلقان (ص ١٧).

(٢) المرجع السابق، (ص٢٢).

(٣) طه بن حسين بن علي بن سلامة، الدكتور في الأدب: من كبار المحاضرين، جدد مناهج، وأحدث ضجة في عالم الأدب العربي، وأصيب بالجدري في الثالثة من عمره، فكف بصره، وبدأ حياته في الأزهر (١٩٠٢م)، ثم بالجامعة المصرية القديمة، وهو أول من نال شهادة الدكتوراه منها، سنة ١٩١٤م، بكتاب (ذكرى أبي العلاء)، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي

أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم؛ لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحَب منها وما يُكره، وما يُحمَد منها وما يُعاب، وأن نُشعِر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوِّم الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها...»[1].

=

بدمشق، ثم رئيسًا لمجمع اللغة بمصر، وحاول البدء في عمل (دائرة معارف) عربية، ولم ينجح، وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٧٣م.

(١) مستقبل الثقافة في مصر، للدكتور طه حسين (ص٤٤).

المطلب الرابع: ما القضايا التي ينبغي التركيز عليها لحفظ هوية الأمة في زماننا؟

لا شك أن الدين كُلٌّ لا يتجزأ؛ ويجب علينا أن ندعو إليه كله، مثلما نؤمن به كله، ونحرص عليه كله؛ لكن ثَمَّة قضايا جرى مَسْخُها ومحاولةُ محوِها وطمسها، أرى أن العناية الكبرى ينبغي أن تتجه إليها، **وهي على سبيل الاختصار:**

أولًا: التذكير بوجوب الدعوة إلى الله تعالى.

الدعوة عنوان خيرية هذه الأمة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ١٠٤]، وبرهان ريادتها للأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ودليل وراثتها للنبيين ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، وبها استوجبت الأجر على الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ولو فرَّطت الأمة في واجب الدعوة والبلاغ فقد سقطت من عين الله تعالى، واستحقت مَقته وعذابه؛ إذ ما شرع الله الجهاد بما فيه من ذهاب النفس والمال وحصول المكروه فيهما إلا قيامًا بهذا الواجب ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة الأنفال: ٣٩].

وحق على الدولة المسلمة أن توفر للدعوة ما تحتاجه من طاقات بشرية وموارد مالية، وما يكفل لها ترقية الأداء وحسن العرض بأفضل الأساليب

وأحدث التقنيات، وقد مضى زمان كانت الدعوةُ فيه قائمةً على جهود فردية واجتهادات شخصية أثمرت خيرًا أحيانًا، وخلَّفت شرورًا في أحيان أخرى.

وأقول: لا بد أن يتوافر على التخطيط للدعوة في زماننا هذا هيئات ورجال وبحوث ودراسات؛ حتى ندرك مَن قبلنا ونصلح ما أفسد غيرنا، أما التخبط والارتجال والفوضى فلا تصلح لزمان قد صارت لغة الأرقام والإحصاءات هي المعوَّل عليها في كل شيء.

ثانيًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببٌ لأمن المجتمعات، وحفظ الحقوق، ونزول رحمة الله، ومنع المفسدين من أن يتعدى فسادُهم إلى غيرهم، وقد جعله الله ﷻ شرطًا لخيرية هذه الأمة وعلامة لأهل الإيمان فيها [(١)]، كما أن تركه سبب لنزول اللعنة وحصول المقت[(٢)].

وفي سنة النبي ﷺ تواترتِ النصوص في بيان أن هذا الأمر سنة ماضية وفريضة محكمة لا يسع مسلمًا إنكارُها، ومن ذلك:

١- حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أَثَرَةٍ علينا، وعلى أن لا ننازع

---

(١) في قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...﴾ [آل عمران: ١١٠].

(٢) في قوله سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم» [١].

٢- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ أَنْ تَقُولَ لِلظَّالِمِ: يَا ظَالِمِ، فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ**» [٢].

٣- وعن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أوصاني خليلي ﷺ بخصالٍ من الخير: أوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مُرًّا» [٣].

٤- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «**لَا يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ**»، قالوا: يا رسول الله كيف يحقرُ أحدُنا نفسَه؟ قال: «**يَرَى أَمْرًا لله عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى**» [٤].

٥- روى الحسن البصري أن رسول الله ﷺ قال [٥]: «**لَا تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ تَحْتَ يَدِ الله ﷻ وَفِي كَنَفِهِ مَا لَمْ يُمَالِئْ قُرَّاؤُهَا أُمَرَاءَهَا، وَمَا لَمْ يُزَكِّ صُلَحَاؤُهَا فُجَّارَهَا، وَمَا لَمْ يُمَنِّ خِيَارُها شِرَارَهَا، فَإِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ رَفَعَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ يَدَهُ، ثُمَّ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرتَهُمْ سُوءَ العَذَابِ، ثُمَّ ضَرَبَهُمْ بِالفَاقَةِ والفَقْرِ**» [٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٨٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٦٥٢١)، والحاكم (٤/ ١٤٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٠١).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٤١٥)، وابن حبان (٤٤٩)، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (١١٨٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٨)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤).

وبعد هذا كله يراد لنا أن نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! حتى رأينا مَن ينعى على الناس في بعض البلاد كيف يمنعون المجاهرة بالإفطار في نهار رمضان؟ وكيف يحظرون المُسكِرات؟ وكيف يفرضون الحجاب- أو الزي المحتشم- على طالبات الجامعات؟ ونجد من بين طلبة العلم- بَلْهَ عامة الناس- من يريد أن يحظر على الأئمة وأهل العلم بذل النصيحة للسلطان إلا بإذن منه، بل هناك من يضيق عَطَنُهُ إذا سمع درسًا أو موعظة عبر مكبِّرات الصوت الخارجية في مسجد ما؛ فيدعو إلى منع ذلك؛ بدعوى أن فيه تشويشًا واعتداءً على حريات الآخرين، وفي الوقت نفسه لا يَتَمَعَّرُ وجهه لكثرة الحفلات الغنائية التي تنعق فيها الأصوات النشاز ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

ثالثًا: تمييز العلاقة بين الحاكم والمحكوم على وفق أدب القرآن والسنة.

وقد حدث في هذا الباب خلط كثير عند فئام من الناس ما بين مُفْرِطٍ ومُفَرِّطٍ، ومِن أوجب واجبات الخطاب الدعوي في أيامنا هذه أن يبيَّن للناس واجباتهم تجاه حكامهم، وحقوقهم على رُعاتهم، حتى يَسْلَمَ كلُّ امرئ مسلم من الغلو والتقصير، ما بين أناس يريدون أن يُؤَلِّهوا الحاكم فلا يُنتقد ولا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُنَبَّه على خطئه، وآخرين لا هَمَّ لهم إلا ذكر مثالب الحكام وتَتَبُّع زلاتهم وزرع الكراهية في نفوس الرعية تجاههم، ودينُ الله وسطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، **فلا بد من ذكر الحقائق الشرعية في هذا الباب؛ ومن بينها:**

١) السمع والطاعة لوُلاة الأمور في المنشط والمكره، والعسر واليسر في غير معصية.

٢) عدم منازعتهم فيما ولَّاهم الله من أمر المسلمين، بل نعتقد أنهم في بلاء، وندعو لهم بالمعافاة.

٣) الوفاء ببيعتهم، وعدم إعانة الخارجين عليهم؛ قال الإمام القرطبي: «لو خرج خارجيٌّ على إمام معروف بالعدالة وجب على الناس جهادُه، فإن كان الإمام فاسقًا والخارجيُّ مُظهرًا للعدل لم ينبغِ للناس أن يُسرعوا إلى نصرة الخارجي حتى يتبين أمره فيما يظهر من العدل، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأول؛ وذلك أن كل مَن طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكَّن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر» [(١)].

٤) بذل النصيحة لهم في رفق ورحمة، مع توقيرهم ومعرفة حقهم.

٥) عدم متابعتهم في الباطل وتزيين المنكر لهم، بل لا بد من الإنكار عليهم- بالطرق الشرعية- وبيان الحق لهم، والحرص على أمرهم بالمعروف؛ عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**»، قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: «**لَا، مَا صَلَّوْا**» [(٢)].

٦) أداء الصلاة معهم وراءهم ما داموا مسلمين.

٧) هذه الطاعة ليست قاصرة على صنف من الحكام البَرَرَة ذوي النسب الشريف، بل هي لكل من ولي أمر الأمة مسلمًا، بَرًّا كان أو فاجرًا، شريفًا أو وضيعًا.

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٤).

رابعًا: وجوب الحكم بما أنزل الله.

وهذه من القضايا التي يراد للناس نسيانها، وذلك بتخويف الدعاة منها، ورميهم بالتهم الباطلة من جنس قولهم: أصولي، متطرف، ظلامي، خارجي، سروري، تكفيري، رجوعي، إلى آخر ذلك النَّبْزِ الذي يعفُّ عنه لسان المسلم ويتورع عنه المؤمن ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

لا بد للدُّعاة من التأكيد على أهمية هذه القضية من الدين، وأنها تمثل بِبُعْدِها العَقَدي والعملي أساسَ الدين ولُبَّهُ، وقد ورد هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٥٩-٦٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن هذه الآيات: «ذم الله ﷻ المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظَّمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثيرًا ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض

الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك [١] وغيرهم، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضًا، وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات، أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم، قالوا: إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق، ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات، أو «الذَّوقية» التي هي في الحقيقة أوهام وخيالات»[٢].

ويقول محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [سورة النساء: ٦١]-: «والآية ناطقة بأن مَنْ صَدَّ وأعرض عن حكم الله ورسوله عمدًا- لا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به- فإنه يكون منافقًا لا يُعتد بما يزعمه من الإيمان، وما يدعيه من الإسلام، وهي حُجة الله البالغة على المقلدين لبعض الناس فيما استبان حكمه في الكتاب والسُّنة، لا سيما إذا دُعوا إليه ووُعظوا به»[٣].

ولا يهولن الداعية إلى الله ما ينبزه به خصومه من تلك الألقاب التي هم أحق بها وأهل لها، ولكن هذه سنة الله في الأولين والآخرين ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]، ويبقى الحق حقًّا ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

---

(١) يعني: التتر.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٢/ ٣٣٩-٣٤٠). الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ م.

(٣) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٨٥). الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.

خامسًا: التأكيد على وجوب الوحدة بين المسلمين.

هذه هي قضية القضايا التي ينبغي الطَّرْقُ عليها والتركيز في عرضها بالليل والنهار سرًّا وعلانية في عصرنا هذا، وهي من القضايا التي تحصل فيها الغفلة كثيرًا بين الاختلافات الحزبية والمصالح القَبلية، والتي قد يتورط بعض الدعاة بل والمؤسسات الدعوية فيها، لا بد أن نلقي في روع المسلمين الذين يتلقون الخطاب الدعوي عنا أنه يجب على المسلمين أن يكونوا أمة واحدة كما أراد الله لهم ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وأن تفرقهم وتشرذمهم حرام، وأن العدو يحرص على أن يميز المسلمين ويفرقهم؛ رغبةً منه في التحريش بينهم وإلقاء العداوة والبغضاء بين جمهورهم، وكل من أعان على ذلك وأسهم فيه فقد خدم أعداء الإسلام من حيث يشعر أو لا يشعر، وأنه واجب على الناس أن يتناسَوا خلافاتهم الفقهية واختلافاتهم الحزبية وتباييناتهم القبلية في زمانٍ عاد كل مسلم مستهدفًا فيه من أجل إسلامه لا لشيء آخر ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ فاللهَ اللهَ في وَحدتكم يا أهل القِبلة.

سادسًا: العودة إلى مصطلحات القرآن في تصنيف الناس.

إن الحرب الإعلامية التي يقودها أهل الباطل ضد الحق وأهله قديمة قِدَمَ الحق والباطل، وقد قرأنا في القرآن قول فرعون عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

والواجب علينا إزاء هذه الحرب الإعلامية التي يَشُنُّها اليهود والصليبيون على

الإسلام وأهله في هذا الزمان: أن نلزم الحذر، فلا نردد ما يزخرفون من قيم ومفاهيم ومصطلحات؛ لأننا لو اكتفينا بأن نكون ناقلين عنهم لترتب على ذلك النقل مصيبتان:

الأولى: تثبيت مفاهيم دخيلة.

الثانية: خلخلة مفاهيم أصيلة.

إن الواجب على العلماء والدُّعاة أن يعمدوا إلى المصطلحات الشرعية الأصيلة النابعة من القرآن والسنة فيستعملوها ويشيعوها بين الناس؛ حتى تعود دارجةً بينهم سهلةً على ألسنتهم؛ **ومن أمثلة ذلك**:

- تقسيمُ القرآنِ الناسَ إلى: مؤمن، وكافر، ومنافق، نجد بدلًا منه تقسيمهم إلى: يَميني، ويساري، ومتشدد، ومعتدل، ومستنيرٍ، وأصولي، إلى آخر تلك المنظومة الإعلامية التي سَرَتْ ولو إلى خطب المنابر وأحاديث الدعاة والعلماء.
- حديث القرآن عن القيم والمنجزات الحضارية والأعمال البشرية على وفق معايير شرعية ومصطلحات إسلامية؛ كالحق والباطل، والعدل والظلم، والخير والشر، والمعروف والمنكر، نجد بدلًا منها مصطلحات هُلاميَّة؛ كالرَّجعية والتقدُّمية، والإيجابية والسلبية.

ومن ذلك: مصطلح الإرهاب الذي غدا أكثرها شيوعًا وتناولًا في أحاديث الساسة وبرامج الإعلام ومقالات المفكِّرين، وأدمنت الجهات المعادية للمسلمين أن تطلقه على المقاومة المشروعة التي تقوم بها بعض الشعوب دفاعًا عن عزتها وكرامتها، وتتعمد الخلط والتلبيس ولو على بعض فئام من المسلمين!! تُرى ماذا يراد بهذا المصطلح؟ وهل الإرهاب والمقاومة لفظان مترادفان معناهما واحد؟ أم بينهما كما بين المشرق والمغرب؟

سابعًا: بيان عدل الإسلام في معاملة غير المسلمين.

لقد أثار الغربيون بوسائل شتى حملةً مضمونها: أن المسلم لا يحتمل غيرَه، وأنه يريد للناس جميعًا- من غير المسلمين- أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم أو ينفوا من الأرض، وأعَدوا الخطط ليجعلوا من الإسلاميين دعاة الإرهاب المذموم في العالم؛ حتى ترتبط صورة المسلم في أذهان الناس بمنظر العنف والدماء والأشلاء، وحتى يصير المسلم عند العامة رمز الخراب والدمار، وها هنا لا بد أن نحذر من الإفراط والتفريط؛ فإن بعض الناس في سبيل الدفاع عن الإسلام- زعم- يريد أن يلغي الفوارق الشرعية بين المسلم والكافر، ويعمد إلى التلبيس والتدليس حين يقول بأن الإسلام لا يميز بينهما، وها هنا لا بد أن نشيع بين عامة الناس وخاصتهم أن غير المسلمين ليسوا سواءً في نظرة الإسلام إليهم ومعاملته إياهم، ونركز في ذلك على أمرين مهمين:

أولهما: بيان ما يفرضه علينا ديننا من معاملة المسالمين لنا من غير المسلمين معاملةً حسنةً، وأن نفرق في المعاملة بينهم وبين المحاربين الذين يؤذون المسلمين في دينهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧-٨].

وقد كان النبيُّ ﷺ في سيرته خيرَ مثال للمسلم العادل الذي يُنزل كلَّ إنسان منزلتَه، ويعامله بما يستحق من غير حَيفٍ ولا ظلم، وقد توضأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من

مَزَادَةِ مشركةٍ[١]، وأكلَ من طعام يهودية[٢]، وعاد الغلامَ اليهوديَّ لَمَّا مرض[٣]، وتوفيَ ودرعه مرهونة عند يهودي[٤].

ثانيها: هذه المعاملة الحسنة لا تعني المداهنة في الدين؛ بأن نعامل غير المسلم وكأنه مؤمن بالله ورسوله، فكلُّ مَن بلغتْه رسالةُ الإسلام ثم لم يؤمن به ولم يقر برسالة محمد ﷺ، بل أنكر أن يكون محمدٌ ﷺ رسولَ الله، أو أن القرآنَ كلامُ الله- فإنه لا يحق لنا أن نعامله وكأنه مؤمن بالله ورسوله، بل الواجبُ بُغْضُه والبراءةُ إلى الله منه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثامنًا: التذكير الدائم بالقيم الأخلاقية والمعايير الحضارية في رسالة الإسلام.

ليس محمودًا من الداعية أن يركز في خطابه لجمهور المسلمين في النواحي العَقَدية النظرية والشعائر التعبدية، ويهمل الجوانب الأخلاقية والقيم الحضارية في ديننا!! إن المسلم الحريص على صيام رمضان وحج البيت الحرام، هو نفسه الذي قد يخلف الوعد ويخون الأمانة ويكذب في الحديث ويغش في المعاملة، وهو نفسه الذي قد يقع في معاصي القلوب من الغش والكبر والغِلِّ والحسد وغير ذلك من المهلكات، وقد يرى أنها أمور هينة تكفرها تلك الشعائر التي يحرص على المحافظة عليها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢) عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٦) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه البخاري (٢٩١٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لا بد من تذكير الناس بقيمة الوقت في ديننا، وأن العبادات في جملتها قد ارتبطت بالوقت، وأن المسلم سيحاسَب بين يدي ربه على ساعات عمره؛ وذلك من أجل أن يكون لنا إسهام في القضاء على ما أصاب الناس من التفنن في قتل الوقت وتضييعه؛ حتى عدنا مثلًا بين الأمم في إخلاف الوعد وعدم الاهتمام به، وحتى غدا شائعًا بين الناس أن الاجتماع الذي حُدِّدتْ له الساعة العاشرة والنصف سيبدأ في الحادية عشرة، وهكذا.

تاسعًا: التحذير من الغلو والتقصير.

الناس في زماننا بين غالٍ في الدين وجافٍ عنه، وقلَّ من يسلم من إحدى تينك الآفتين المهلكتين؛ ولذا فلا بد من التذكير بالنهي في نصوص القرآن والسنة عن الغلو، وأنه مرتبط بغير المسلمين، وأن أهل القرون المفضلة ما عرفوه إلا بوصفه ظاهرة تطفو على السطح سرعان ما تأتي عليها عوامل التوجيه والإرشاد فتعود نسيًا منسيًّا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء:١٧١]، وكذلك نذكِّر الناس بأن التقصير مذموم، فتارك الصلاة- مثلًا- أمره دائر بين الكفر الأكبر والأصغر، ومتعمِّد الفطر في نهار رمضان يظنُّ علماءُ الإسلام به الانحلالَ والزندقةَ، وتارك الزكاة المفروضة متوعَّد بعذاب أليم يلحق جنبه وبطنه وظهره، ولا نتناول الأمر من جانب واحد بالنهي عن الغلو في قيام الليل مثلًا ونهمل مَن يفرطون في صلاة الجماعة.

عاشرًا: التفريق في خطابنا بين الإرهاب الممنوع والجهاد المشروع.

وهذا من القضايا التي حصل فيها إرهاب فكري وإعلامي على الناس؛ حتى

عميت عليهم الأنباء فهم لا يتساءلون!! بل يكتفون بترديد ما يسمعون ولا يدرون إن كان حقًّا أو باطلًا! ولا يدري أكثر المسلمين أن الإرهابَ المنبوذَ بضاعةٌ جُلبت إليهم من غيرهم؛ ومن أمثلة ذلك:

- إسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي، وقَتْل ١٩٠٠٠٠ ياباني، جميعهم من المدنيين تقريبًا.
- ما فعلته جماعة (أوم) اليابانية، التي ثبت تواطؤها بإلقاء غاز السارين السام في أنفاق مترو طوكيو، وأدى إلى وفاة واختناق الكثيرين.
- إرهاب الصرب في حربهم الضروس ضد مسلمي البوسنة في المدة من ١٩٩٢ - ١٩٩٥م.
- إرهاب السيخ والهندوس ضد مسلمي الهند وكشمير.
- تطرف وإرهاب أعداء المسلمين في كل من طاجيكستان، والفلبين، والشيشان، وبورما.
- التطرف الصهيوني في فلسطين المحتلة المدعوم من الغرب والشرق معًا.
- قصف ملجأ العامرية في بغداد وهدمه على من فيه من المدنيين.
- تدمير مصنع الشفا للأدوية بالسودان.

لا بد أن نشيع بين الناس أن المقاومة المشروعة مرادٌ بها ما يسميه فقهاؤنا جهادَ الدَّفْعِ، وهو ما يدفع به المسلمون عن دينهم وديارهم وأموالهم وذراريهم، ضد من بدأهم بالظلم والعدوان، مِن جنس ما يقوم به إخواننا في فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير والشيشان اليوم، وما قام به المسلمون في الجزائر والسودان

وغيرها من بلاد الله على أيام ما سُمِّي بالاستعمار، وهو مشروعٌ بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات، ولفعله ﷺ وأمره به، لكن بين هذا الجهاد المشروع والإرهاب الممنوع فروق معتبرة من حيث الوسائل والنتائج، يراها كل مَن نوَّر اللهُ بصيرتَه.

الرسالة الثانية

دور العلماء في النوازل المعاصرة[1]

(١) ورقة مقدمة إلى مؤتمر غزة النصر، المنعقد في مدينة إستانبول ـ تركيا، في الفترة من ١٦ – ١٨ صفر ١٤٣٠هـ الموافق ١٢–١٤ فبراير ٢٠٠٩م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذي عظَّم أهلَ العلم تعظيمًا، فقال ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وأكرَمهم تكريمًا، فقال ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وجعلهم مستخلفين على شرعه ودينه، يستنبطون منه الحقَّ، ويبينونه للناس، وينفُون عنه تحريف الغالِين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ٨٣].

والصلاة والسلام على معلِّمِ البشرية الخيرَ، الذي «جعل الله شريعته مؤيَّدة إلى يوم الدين، ووكل بحفظها من الصحابة والتابعين مَن تقوم به الحجة، وترتفع بقوله الشُّبهة، وهم الفقهاء الذين ألزمهم حراسةَ شريعته، والتفقُّهَ في دينه، فقال تبارك وتعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ فجعلهم فرقتين أوجب على إحداهما الجهاد في سبيله، وعلى الأخرى التفقُّه في دينه؛ لئلا ينقطع جميعُهم إلى الجهاد فتندرس الشريعة، ولا يتوفروا على طلبِ العلم فيغلب الكفار على الملة؛ فحرسَ بيضةَ الإسلام

بالمجاهدين، وحفِظ شريعة الإيمان بالمتعلمين، وأمر بالرجوعِ إليهم في النوازل ومسألتهم عن الحوادث، فقال ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال ﷻ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وبيَّن أن العلماء هم الذين يخشون ربهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وجعلهم خلفاء في أرضه، وحجته على عباده، واكتفى بهم عن بعثه نبيًّا وإرسال نذيرٍ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وبعد:

فمن رحمة الله بعباده أن اختار لهم أرحمَ عباده وأحرصهم على مصالِحهم؛ ليفتوهم ويدلوهم على ما ينفعهم من أمور دينهم ويوجهوهم في ما يقع لهم من النوازل.

وهذا موضوع هذه الورقة التي تتناول: «دور علماء الأمة في النوازل المعاصرة».

ورحم اللهُ أبا جعفر الطبري الذي قال: «إن لله في كل نازلة وحادثة حُكْمًا موجودًا: بنصٍّ، أو دلالةٍ»[(١)].

وقد جعل العلماء رحمهم الله معرفة أحكام النوازل من شروط الفتوى، قال الخطيب البغدادي[(٢)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم يكون عالمًا بالأحكام الشرعية، وعلمُه بها

(١) تفسير الطبري (١/ ٨٩).

(٢) هو الحافظ الإمام، محدث العراق والشام، أبو بكر أحمد بن علي بن مثبت بن أحمد بن مهدي

يشتمل على معرفتِه بأصولِها وارتياضٍ بفروعِها... وأصولُ الأحكام في الشرع أربعة: أحدها: العِلمُ بكتاب الله على الوجه الذي تصحُّ به معرفةُ ما تضمنه من الأحكام: محكمًا ومتشابهًا، وعمومًا وخصوصًا، ومجملًا ومفسرًا، وناسخًا ومنسوخًا، والثاني: العلم بِسُنَّة رسولِ الله ﷺ الثابتة مِن أقواله وأفعاله، وطرق مجيئها في التواتر والآحاد، والصحة والفساد، وما كان منها على سببٍ أو إطلاق، والثالث: العلم بأقاويلِ السلف فيما أجمعوا عليه واختلفوا فيه؛ ليتبع الإجماع، ويجتهد في الرأي مع الاختلاف، والرابع: العلم بالقياس الموجب لردِّ الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها؛ حتى يجدَ المفتي طريقًا إلى العلم بأحكامِ النوازل وتمييز الحقِّ من الباطل، فهذا ما لا مندوحة للمفتي عنه، ولا يجوز له الإخلال بشيء منه»[(١)].

وقد ذكَرَ المفسِّرون رحمهم الله في قولِه ﷻ: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء: ٨٣] أنَّ «هذا تأديبٌ من الله لعباده عن فِعْلِهم هذا غيرِ اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر مِن الأمور المهِمة والمصالِح العامة ما يتعلق بالأمن

=

البغدادي، كان من أئمة أهل الحديث حفظًا ورواية، وفقهًا ودراية، صنف التصانيف الكثيرة في علوم الحديث وأنواعه وأحكامه، وكان وحيد عصره حفظًا وضبطًا وإتقانًا وديانة، وتوفي عام ٤٦٣هـ.

(١) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (٢/ ٣٣١)، تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي– السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ.

وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة- عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردُّونه إلى الرسول وإلى أولِي الأمرِ منهم: أهلِ الرأيِ والعلمِ والنُّصحِ والعقلِ والرَّزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحةً ونشاطًا للمؤمنين وسرورًا لهم وتحرُّزًا من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]؛ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة؛ وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحثٌ في أمرٍ من الأمور ينبغي أنْ يُولَّى مَن هو أهل لذلك ويُجعل إلى أهله، ولا يُتقدَّم بين أيديهم؛ فإنه أقرَب إلى الصوابِ وأحرى للسلامة من الخطأ» [1].

(١) تفسير السعدي (١/ ١٩٠)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

المطلب الأول: دور العلماء في توعية الأمة بخطر التحالُف الصهيوني الصليبي

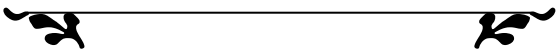

وقد ظهر هذا الحلف بوجه سافر في عهد الرئيس الأمريكي بوش الابن والإدارة الأمريكية السابقة، بين اليهود الصهاينة والمحافظين الجدد من الأمريكيِّين، وقد كان لهذا الوعي الذي بثَّه العلماء كشفٌ لمحاربة الإسلام بدعوى محاربة الإرهاب، وفضحٌ لمفهوم تقسيم العالم الإسلامي إلى معسكرَيْن من المعتدلين والممانعين... وغير ذلك من الحرب الإعلامية التي واجهها العلماء في وسائلهم المتنوِّعة للإعلام؛ من المنابر، والإذاعات، والقنوات، والمواقع الدعوية النافعة.

المطلب الثاني: دور العلماء في الدفاع عن العراق المحتل

وقد تميز خطاب العلماء في التعامل مع الاحتلال الأمريكي للعراق بالوضوح والصِّدق؛ فجاءت مواقفُهم صريحةً ومُدِينةً للاحتلال ومُحَرِّمةً للتعاون مع المحتلين، وموجبةً لجهاد المحتل على كل قادر من أهل العراق، وما الموقف الثابت لـ(جمعية علماء المسلمين) في العراق إلا نموذج مِن مواقف العلماء في العالم الإسلامي.

المطلب الثالث: دور العلماء في الحفاظ على المقدَّسات الإسلامية في فلسطين

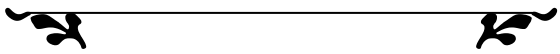

وقد كان للعلماء دور كبير في التوعية بخطر الحفريات المتكرِّرة والأنفاق اليهودية تحت المسجد الأقصى المبارك، ومحاولات الهدم في حارة المغاربة من القدس الشريف، وغير ذلك من محاولات طمس الصهاينة معالمَ المقدَّسات الإسلامية، ولولا لطفُ الله ثم صيحاتُ العلماء الداعين إلى الدفاع عن الأقصى المبارك، وتصريحهم بوجوب المحافظة على المقدَّسات الإسلامية؛ لاندثر كثير من هذه المعالِم وانطمست بقايا الحضارة الإسلامية في القُدْس، ولغلَب عليها التهويد الكامل.

المطلب الرابع: دور العلماء في الدفاع عن النبي ﷺ ضد الرسوم المسيئة

فقد كان لأهل العلم قصَب السَّبق- بحمد الله ﷻ- في الدفاع عن المقام النبوي العظيم، ومن أعظم التوفيق للعلماء أنهم استطاعوا تحويل الإساءة الغربية إلى إسهام إسلامي راشد في بيان عظمة الهدْي النبوي ورفع ذكره الشريف في العالمين، وكان ثمرة جهد العلماء في كل مكان حملات مظفَّرة موفَّقة أحيَتِ الأمة وأيقظت كوامن محبتها للنبي ﷺ، ونشرًا للسيرة النبوية العَطِرة والشمائل الكريمة بكل وسائل الإعلام في العالم العربي والإسلامي والغربي، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ومن مظاهر ذلك: إنشاء منظمة النصرة العالمية التي توفَّر عليها جماعة من أهل العلم المشاهير بالتضامن مع أهل الدُّثور من خاصة المسلمين، وكان من أعمالها الموفقة مشروع (اكتشفْ محمدًا ﷺ) المراد منه مخاطبة الأوربيين خاصة، وكذلك مجلة (النُّصرة) التي صدر منها عددان في السودان، علاوة على مشروع سلسلة أفلام (وانقشع الضباب)؛ وهكذا في مسيرة للخير نرجو أن تكون ممتدة إن شاء الله.

المطلب الخامس: دور العلماء في التصدي لمنع الاستنساخ

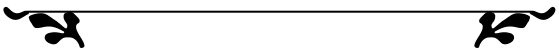

في حين استطاع بعض خبثاء الغرب اختراق المؤسسات الكنَسِية وتمرير الاستنساخ على أنه إنجاز علمي، عجز أدعياء العلم في البلاد الإسلامية عن تبنِّي هذا المشروع، وتصَدَّى أهل العلم لمنع ذلك وبيان حرمته؛ فظهر للناس تهافتُ هذا المشروع وعبثُه، وأنه في الحقيقة مسخ للفطرة وتلاعب بالجينات الوراثية، واعتداء على نواميس الكون؛ فباء الاستنساخ بالفشل الذريع.

المطلب السادس: دور العلماء في بيان حق الأُمة في الدفاع عن نفسها

وهذا من أعظم الأدوار التي وفق اللهُ فيه العلماءَ إلى القيام به؛ لشدة الضغوط الداخلية والخارجية عليها، فقد بيَّن العلماء أن الدفاع عن النفس واجب شرعي، وأن مقاومة المحتل الغاصب للأرض حق مشروع في كل القوانين، وهذا من تثبيت الله للعلماء وتجرُّدهم عن إرضاء الناس وتجاوزهم للمطامع والمخاوف، وهذا من أعظم الجهاد؛ لأنه كلمة حق عند أعظم الإمبراطوريَّات في التاريخ جَوْرًا وتجبُّرًا وتحالُفًا مع الصهاينة.

المطلب السابع: دور العلماء في الحفاظ على التوازن في الموقف من الجهاد

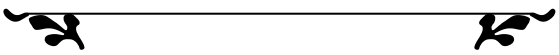

ويتمثل هذا الدَّور في تبنِّي موقف وسَط يحفظ حقَّ الجهاد ومقاومة المحتل، وفي الوقت نفسه لا يستجيب لضغوط بعض الشباب فيُزكِّي حملات القتل بالجملة دون مسوِّغ شرعي.

المطلب الثامن: دور العلماء عامة والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين في نصرة غزة

فقد تمثَّل دورُهم في مخاطبة الشُّعوب الإسلامية، وبيان حقيقة الصراع وحجم العدوان على غزة، ثم مخاطبة الحكام والملوك وتذكيرهم بواجبهم في نُصرةِ إخوانِهم ومسؤوليتهم في إغاثة غزة وأهلها، علاوة على بيان العلماء الذي صرَّح بحرمة موالاة العدو ومحاصرة المسلمين وتجويعهم، وتحذير مَن يشارك الكفار في قتل إخوانه بالرِّدة عن الإسلام، وقد كان لهذا البيان تأثير بالغ في زجر بعض الحكام عن مواقِفِهم الضعيفة في نصرة غزة.

وقد أثمرت جهود العلماء؛ فكانت ثمرتها يقظةً عظيمةً في دول العالَمَ الإسلامي كلِّه، واستجابةً كبيرةً لدعوة الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين في مسيرات نصرة غزة، وفضح العدوان والحصار والتجويع لأهلنا في غزة.

وهذا غيض مِن فيض أدوار العلماء في النوازل المعاصرة، والأمرُ أعظمُ من ذلك، جزاهم الله عن الإسلام خيرًا، وزادهم توفيقًا وسدادًا ونفعًا لأمتهم.

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

مقام النبوة بين تعظيم المحبين وإساءة المبغضين
دور علماء الأمة وفقه المواجهة[1]

(١) ندوة علمية بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، مركز بحوث القرآن والسنة.

المطلب الأول: مكانة العلماء في الأمة

إن الله- تقدست أسماؤه- اختص مِن خلقه مَن أحب فهداهم للإيمان، ثم اختص مِن سائر المؤمنين مَن أحب؛ فتفضل عليهم فعلمهم الكتاب والحكمة وعلمهم التأويل، وفقههم في الدين، وفضَّلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمان وأوان، رفعهم بالعلم وزيَّنهم بالحلم، بهم يُعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح، ففضلهم عظيم، وخطرهم كبير؛ فهم ورثة الأنبياء وخيرة عين الأولياء، «**إِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي البَحْرِ**» (١)، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تُشفَّع.

هم أفضل العباد، وأعلى درجةً من الزهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(٢)، فبقولهم يعمل الحاكم والمحكوم، وعن رأيهم يَصْدُرون، وما أشكل على قضاة المسلمين من حكمٍ فَبِقَولِ العلماء يحكمون، وعليه يُعَوِّلون، فهم سراج العباد، ومنار البلاد، وقِوام الأمة، وينابيع الحكمة، وبهم تحيا قلوب أهل الحق وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر؛ فإذا طُمستْ تحيرتِ الأبصار، وإذا لاحت أُمِن العِثار.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٣٩)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إن للعلماء في الأمة مكانة عظيمة، ولهم فيها مآثر جسيمة، ولهم عند الله تعالى منزلة لا يبلغها غيرهم، فالعلماء أشد الناس وأكثرهم لله خشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٣٥: ٢٨] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] ومنزلتهم أرفع منزلة وأزكاها ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وهم المرجع عند السؤال ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، والعلماء لا يساويهم أحد في منزلتهم ورتبتهم ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] وهم الذين يعقلون من مراد الله ما لا يعقله غيرهم ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وهم ورثة الأنبياء «**إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١)، والعلماء فضلهم على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، ولا يشقى بهم جليس «**هُمُ القَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**»(٢) مجالسهم تحفُّها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، ويذكرهم الله فيمن عنده، فيزدادون بذلك عزًّا إلى عزهم، وشرفًا إلى شرفهم، ورفعةً إلى رفعتهم، ونحن مأمورون بأن نعرف لهم قدرهم، ونحفظ لهم مكانتهم؛ قال ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمَ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ**»(٣).

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ شَرِيفٌ ... وَإِنْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لِئَامُ

وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ ... يُعَظِّمُ قَدْرَهُ الْقَوْمُ الْكِرَامُ

(١) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٩)، والحاكم (١/ ١٩٩)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيَتَّبِعُونَـــهُ فِي كُـــلِّ أَمْـــرٍ كَرَاعِـــي الضَّـــأْنِ تَتْبَعُـــهُ السَّـــوَامُ
وَيُحْمَـــلُ قَوْلُـــهُ فِي كُـــلِّ أُفْـــقٍ وَمَـــنْ يَـــكُ عَالِمًـــا فَهْـــوَ الإِمَـــامُ
فَلَوْلَا الْعِلْمُ مَا سَعِـدَتْ نُفُوسٌ وَلَا عُـرِفَ الحَـلَالُ ولَا الحَـرَامُ
فَبِـالْعِلْمِ النَّجَـاةُ مِـنَ المَخَـازِي وَبِالجَهْـــلِ المَذَلَّـــةُ وَالرَّغَـــامُ
هُـوَ الهَـادِي الـدَّلِيلُ إِلَى المَعَـالِي وَمِـصْـبَاحٌ يُـضِـيءُ بِـهِ الـظَّـلَامُ[1]

قال أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء، إذا بدت للناس اهتدَوا بها، وإذا خفِيتْ عليهم تحيَّروا» [2] وقال أبو الأسود الدؤلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الملوك حُكَّام على الناس، والعلماء حُكَّام على الملوك»[3].

إِنَّ الأَكَـابِرَ يَحْكُمُـونَ عَـلَى الـوَرَى وَعَـلَى الأَكَـابِرِ تَحْكُـمُ العُلَـمَاءُ

وقال سفيان بن عُيَينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أرفع الناس عند الله منزلةً من كان بين الله وبين عباده، وهم: الأنبياء، والعلماء» [4].

وإن من علامات أهل الزيغ والضلال الوقيعة في أهل العلم، فهذا يتهمهم بالمداهنة، وذاك يتهمهم بالسعي وراء الدنيا، والثالث يتهمهم بحب الشهرة، والرابع والخامس والسادس، وتجد من كان على شاكلتهم من أهل النفاق

(١) أبيات منسوبة للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) أخرجه ابن عساكر (٢٧/ ٢٢٦) في تاريخ دمشق.
(٣) علقه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٣١١)، ووصله أبو هلال العسكري في كتابه الحث على طلب العلم (ص١٨).
(٤) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة (ص٩).

يفرحون بهذا الكلام، ولا يذبون عن أعراض هؤلاء الأعلام، وقد قال ﷺ: «**مَا مِنِ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنِ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ**»[(١)] فكيف إذا كان هذا المؤمن من أهل الله وخاصته؟! فالإثم هنا يكون أعظم، والخطيئة تكون أطم.

وَلَا خَيْرَ فِي قَوْمٍ يُذَلُّ كِرَامُهُمْ وَيَعْظُمُ فِيهُمْ نَذْلُهُمْ وَيَسُودُ[(٢)]

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «وعلماء السلف من السابقين ومَن بعدهم مِن التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يُذكرون إلا بالجميل، ومَن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل»[(٣)].

(١) أخرجه أحمد (١٦٣٦٨)، وأبو داود (٤٨٨٤)، من حديث جابر بن عبد الله، وأبي طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وإسناده ضعيف.

(٢) من أبيات للإمام أبي هلال العسكري، انظر خزانة الأدب، للبغدادي (١/ ٢٣١).

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (ص١٩٧).

المطلب الثاني: دور علماء الأمة وفقه المواجهة

الأمة على أبواب صراع عنيف ومعركة شرسة، قد تُهلِك الأخضرَ واليابس، وتغير معالم التاريخ، صراع بين حضارة إسلامية تريد للناس أن يعيشوا أحرارًا كما ولدتهم أمهاتهم، وحضارة صهيونية صليبية تريد استعباد الناس، ونهب ثرواتهم، وتغيير مفاهيمهم، وفرض ثقافة شائهة تائهة عليهم، وتَستعمل في سبيل هذه الغايات الخسيسة كل وسيلة لتركيع الناس وإخضاعهم؛ فتارة حرب نفسية، وتارة حصار اقتصادي، وأخيرًا حرب عسكرية تستعمل فيها سائر الأسلحة الفتَّاكة والمدمرة دون اعتبار لشرعية دولية أو مبادئ أخلاقية، ولتحقيق ذلك تُستباح الأعراض، وتُهَدَّد الحصون، وتُغتال الرموز إما مادِّيًّا أو معنويًّا.

وقد فُجعت الأمة الإسلامية في الآونة الأخيرة حين رأت هذه الحرب الصليبية الشرسة قد تعدَّت كل الخطوط الحمراء؛ وتناولت مقام النبي الأكرم ﷺ بالإساءة البالغة والتجريح المهين، تحت شعاراتٍ جوفاء أثبتت الأيام كذبها ومَيْنها، وأنها هُراء ودَجَل؛ كشعاراتِ حريَّة التعبير، وحرية الصحافة، وحرية الرأي، وقد ظنوا أن الأمة ستهضم تلك الإهانة كما هَضَمت غيرها، لكنهم فوجئوا بالمسلمين في المشارق والمغارب وقد هَبُّوا على قلبِ رجل واحد يُعَبِّرون عن غضبهم واستيائهم واحتجاجهم، بل إن بعض الحكومات أبدت امتعاضها بسحب سفرائها أو إلغاء زياراتٍ لبعض ممثلي تلك الدول التي تَوَلَّتْ كِبَرَ هذا العمل المقيت، وقد استغرب الكفار الفجار رِدَّة الفعل هذه من الأمة المسلمة ظنًّا منهم أنها قد ماتت، واستبشر أهلُ الغَيرة خيرًا بهذا الغضب العارم لعِرض محمد ﷺ.

لكن لا بد من وقفةٍ نقول فيها: إن هذه الاعتراضات ما كانت مُرَشَّدة ولا مُوَجَّهة، وقد تولاها في بلاد كثيرة أناس ربما تكون صلتُهم بالدين واهية، وغاب- في الأعم الأغلب- التوجيه الشرعي الرشيد الذي يجلب المصالح ويكثرها، ويدرأ المفاسد ويقللها؛ حتى رأينا أن بلادًا قد اجتاحتها مظاهرات عنيفة ترتب عليها تخريب وتدمير للممتلكات، وعمد بعض المجرمين وأصحاب الأغراض إلى ركوب الموجة لحاجة في أنفسهم، وقد كان دور أهل العلم ضعيفًا إلا ما ندر.

والسؤال الذي نخلص إليه في هذه الورقة: ما دور علماء الأمة في مواجهة هذه الهجمة الشرسة على مقدسات الأمة ورموزها؟ إن دورهم عظيم، وواجبهم كبير، وعليهم التصدي له بكل ما أُوتوا، **ومن ذلك:**

أولًا: بيان مكانة النبي ﷺ في دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا**﴾ [الفتح:٨-٩]، فذَكَر تعالى حقًّا مشتركًا بينه وبين رسوله ﷺ؛ وهو الإيمان، وحقًّا خاصًّا به تعالى وهو التسبيح، وحقًّا خاصًّا بنبيه ﷺ؛ وهو التعزير والتوقير، وحاصل ما قيل في معناهما: إن التعزير اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه، والتوقير اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يُخرجه عن حَدِّ الوقار، لا بد أن يعلم الكافة أن محمدًا ﷺ هو أكرم البشر على الله وأعظمهم جاهًا ومقامًا عنده، وقد زكَّى الله عقله فقال: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ**﴾ [النجم:٢] وزكَّى لسانه فقال: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ**﴾[النجم:٣] وزكَّى كلامه فقال: ﴿**إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ**﴾[النجم:٤] وزكَّى جليسه فقال: ﴿**عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ**﴾[النجم:٥] وزكَّى فؤاده

فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١] وزكَّى بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] وزكَّى خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤] وزكَّى نسبه فقال: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩] وزكَّاه كلَّه فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وغضبُ الله على من شتم نبيه محمدًا ﷺ أو انتقصه أو ألحق به عيبًا أعظم مِن غضبه على من انتقص غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

ثانيًا: بيان الخصائص التي حبى اللهُ بها نبيَّنا ﷺ، والإكثارُ من الحديث عنها في المجامع والمنتديات؛ ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ولا نَمَلُّ من التكرار لينشأ على ذلك الصغير ويشيب الكبير، لقد حبا اللهُ تبارك وتعالى نبينا محمدًا ﷺ من الخصائص القوية والصفات العلية والأخلاق المرضيَّة ما كان داعيًا لكل مسلم أن يجله ويعظمه بقلبه ولسانه وجوارحه.

وقد كان لعلماء أهل السنة قدم صدق في العناية بجمع خصائصه، وإبراز فضائله والإشادة بمحاسنه، فلم يخلُ كتاب من كتب السنة كالصحاح والسنن وغيرها من كتب متخصصة لم يخل من ذكر مآثره، كما أُفردت كتب مستقلة للحديث عنه وعن سيرته، ولا بد للعلماء أن تجري على ألسنتهم الأحاديث المنوهة بشأن رسول الله ﷺ كقوله: «**وَأَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ، وَلَا فَخْرَ، آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي، وَلَا فَخْرَ**»(١) حتى يعلم الكافةُ أن الله تعالى قد أغاث به البشرية المتخبطة في ظلمات الشرك والجهل والخرافة، فكشف به الظلمة، وأذهب الغمة، وأصلح

(١) أخرجه أحمد (٢٥٤٦)، من حديث ابن عباس.

الأمة، وصار هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم، فهدى الله به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وأرشد به من الغواية، وفتح به أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلفًا، وكثَّر به بعد القلة، وأعزَّ به بعد الذِّلَّة، وأغنى به بعد العَيْلَة، وأن البشرية اليوم أحوج ما تكون إلى هديه ونظامه وأخلاقه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثالثًا: بيان مكارم الأخلاق ومحاسن العادات التي جُبِلَ عليها ﷺ حتى يستقر في أذهان المسلمين صغيرهم وكبيرهم أن محمدًا ﷺ كان أحسن الناس خُلُقًا، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثًا، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالًا، وأعظمهم عفوًا ومغفرة، وكان لا يزيد شدة الجهل عليه إلا حِلمًا، كما في صفة رسول الله ﷺ في التوراة؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا «أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا»[(١)].

وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعًا لهم في دينهم ودنياهم، وأفصح خلق الله، وأحسنهم تعبيرًا عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالة على المراد، وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعًا، وأعظمهم إيثارًا على نفسه، وأشد الخلق ذبًّا عن أصحابه، وحماية لهم، ودفاعًا عنهم،

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٨)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهى عنه، وأوصل الخلق لرحمه.

رابعًا: بيان واجب حكام المسلمين في حماية الجناب النبوي؛ لأن من المؤسف أن نقول: إن بعض من ينتسب إلى الإسلام- في بلاد المسلمين- قد يظهر منه شيء من التطاول وسوء الأدب مع سيد الخلق ﷺ، ثم لا يجد من يردعه ويأخذ على يده!

إن الواجب تذكير الحكام بأن المسلمين الذين طُعنوا في دينهم وثُلموا في شرف نبيهم ﷺ يتطلعون إلى إنفاذ حكم الله فيمَن أتى هذا الجُرم الفظيع؛ حتى تهدأ ثائرتهم وتطمئن قلوبهم، وحتى يعلم كل منافق ودجال أن أمر الله نافذ وأن الجناب النبوي حَرَم مقدَّس، لا يقبل المسلمون به مِساسًا.

وإن أول واجبات الدولة المسلمة حراسة الدين وحفظه؛ فمن أجل ذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، وما شرع اللهُ الجهادَ إلا من أجل الدين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال النبي ﷺ: «**مَنْ بدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**» [(١)].

ومِن حفظ الدين: أن يمنع وليُّ الأمر مَن أراد الطعن في الدين ومن يثير الشبهات حوله؛ ليفتن ضعاف الإيمان وجهلة المسلمين، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما الغش والتدليس في الديانات، فمثل البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة من الأقوال والأفعال؛ مثل: إظهار المكاء والتصدية [(٢)] في مساجد المسلمين؛ ومثل: سب جمهور الصحابة وجمهور المسلمين أو سب أئمة المسلمين

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧)، من حديث ابن عباس.

(٢) المكاء: الصفير، يقال: مكا يمكو مكوًا ومكاء، وقد قيل: إن المكو أن يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه، ثم يصيح، والتصدية: التصفيق. جامع البيان للطبري (٩/ ٢٤١).

ومشايخهم ووُلاة أمورهم المشهورين عند عموم الأمة بالخير؛ ومثل: التكذيب بأحاديث النبي ﷺ التي تلقاها أهل العلم بالقبول؛ ومثل: رواية الأحاديث الموضوعة المفتراة على رسول الله ﷺ، ومثل الغلو في الدين بأن ينزَّل البشر منزلة الإله؛ ومثل: تجويز الخروج عن شريعة النبي ﷺ؛ ومثل: الإلحاد في أسماء الله وآياته، وتحريف الكلم عن مواضعه، والتكذيب بقدر الله، ومعارضة أمره ونهيه بقضائه وقدره؛ ومثل: إظهار الخزعبلات السحرية والشعوذة الطبيعية وغيرها التي يضاهي بها ما للأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات، ليصد بها عن سبيل الله، أو يظن بها الخير فيمن ليس من أهله، وهذا الباب واسع يطول وصفه، فمن ظهر منه شيء من هذه المنكرات وجب منعه من ذلك وعقوبته عليها إذا لم يتب حتى قُدِر عليه، بحسب ما جاءت به الشريعة من قَتْل أو جَلْد أو غير ذلك» ا.هـ [1].

ومن هذا الباب: ما فعله عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عقوبته صبيغًا التميمي حين أكثر من السؤال عن مشكل القرآن، حين بلغ عمر أن رجلًا يسأل عن مشكل القرآن، فقال عمر: اللهم أمكني منه، فدخل الرجل على عمر يومًا وهو لابس ثيابًا وعمامة، وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين ما الذاريات ذروًا؟ فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه واحملوه على قَتَب، وأبلغوا به حيَّه، ثم ليقم خطيبًا فليقل: إن صبيغًا طلب العلم فأخطأه.

قال ابن كثير: رواه البزار والحافظ ابن عساكر، وزاد: أن عمر ضربه مائة

(١) السياسة الشرعية، لابن تيمية (٥٠).

وجعله في بيت، فلما برأ دعا به فضربه مائة أخرى، وحمله على قَتَب، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من مجالسته، فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحَلَف بالأيمان المغلَّظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئًا، فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا قد صدق، فَخَلِّ بينه وبين مجالسة الناس [١].

وإنه لمن المعيب حقًّا أن يظن الحاكمُ أنه محايدٌ في قضية كهذه، وأن الأمر لا يعنيه في قليل أو كثير، بل الواجب عليه أن يَعُدَّ ذلك هَمَّهُ المقعِدَ المقيم؛ لأنه لا يبقى للأمة مهابة ولا فضيلة إذا رضِيت بسب نبيها ﷺ.

خامسًا: التركيز في أن الطعن في رسول الله ﷺ طعن في الرسالة، وذمه ذم للدين، وأن أهل العلم رحمهم الله مجمعون على ذلك.

قال أبو بكر بن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سبَّ النبي ﷺ يُقتل، وممن قال بذلك: مالك بن أنس، والليث، وأحمد، وإسحاق، وهو مذهب الشافعي.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو مقتضى قول أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. ولا تُقبل توبته عند هؤلاء، وبمثله قال أبو حنيفة وأصحابه، والثوري، وأهل الكوفة، والأوزاعي في المسلمين، لكنهم قالوا: هي رِدَّة... إلى أن قال: ولا نعلم خلافًا في استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمة، وقد ذكر غيرُ واحد الإجماعَ على قتله وتكفيره [٢].

سادسًا: التذكير بالشواهد التاريخية الموجبة لقتل سابِّ النبي ﷺ ومنتقصه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٩)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٠٤).
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٢/ ٥٣٤).

ومؤذيه، وهي مما لا يحيط به الحصر؛ ومن ذلك:

عن الشعبي عن أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن يهودية كانت تشتم النبيَّ ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ ذمتها»(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، فلما كان ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المِعْوَلَ فجعله في بطنها، واتَّكَأَ عليه فقتلها، فلما أصبح ذُكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس، فقال: «**أُنشِدُ اللهَ رَجُلًا فَعَل مَا فَعَل لِي عَلَيْهِ حقٌّ إِلَّا قَامَ**»، فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتدلدل، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك، فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذتُ المِعول فوضعته في بطنها، واتكأتُ عليه حتى قتلتها، فقال النبي ﷺ: «**أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ**» (٢).

روى ابن إسحاق: أن عبد الله بن خطل بعثه رسولُ الله ﷺ مصدِّقًا، وبعث معه رجلًا من الأنصار، وكان معه مولًى له، فغضِب عليه غضبة فقتله، ثم ارتد مشركًا، وكان له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ والمسلمين؛ فلهذا أهدر دمه ودم قينتيه، قُتِلَ وهو متعلِّق بأستار الكعبة، اشترك في قتله أبو برزة الأسلمي

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٦٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٦١)، والنسائي (٤٠٧٠).

وسعيد بن حريث المخزومي[١].

أفتى فقهاء القيروان وأصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزاري، وكان ممن يحضر مجلس القاضي أبي العباس بن طالب للمناظرة، فرُفعت عليه أمور منكرة في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا ﷺ، فأحضر له القاضي يحيى بنَ عمر وغيرَه من الفقهاء وأمر بقتله وصلبه، فطُعن بالسكين وصُلب منكَّسًا، ثم أُنزل وأُحرق بالنار، وحكى بعض المؤرخين أنه لما رُفعت خشبته وزالت عنها الأيدي استدارت وحوَّلته عن القبلة، فكان آية للجميع، وكبَّر الناس، وجاء كلب فولغ في دمه[٢].

سابعًا: مواجهة مَن يرمي العلماء المعاصرين بالتشديد في هذا الأمر والتعسير فيه بفتاوى مَن سلف من علماء الأمة وفقهائها؛ لأننا في زمان لا يتورَّع فيه الزنادقة أن ينعَوا على أهل العلم قولهم بوجوب قتل مؤذي النبي ﷺ ويستبشعوا قولهم، ويحاول هؤلاء أن يصوِّروا للعامة أن هذه الفتاوى من نتاج جماعات الإسلام السياسي ودُعاة التكفير ومَن يحكمون على ضمائر الناس، لا بد أن يبين كذب هؤلاء المضللين بإشاعة فتاوى الأئمة السابقين، ومن ذلك مما تواتر نقله عنهم:

روى ابن وهب عن مالك: «من قال: إن رداء النبي ﷺ وسخ- أراد به: عيبَه- قُتِلَ». أفتى أبو الحسن القابسي فيمن قال: الجمَّال يتيم أبي طالب، بالقتلِ[٣].

أفتى أبو محمد بن أبي زيد بقتل رجلٍ سمع قومًا يتذاكرون صفة النبي ﷺ، إذ

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٠)، من طريق ابن إسحاق بدون إسناد.
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض (٢/ ٢١٨).
(٣) انظر: سبل الهدي والرشاد (١٢/ ٢٤).

مَرَّ بهم رجل قبيح الوجه واللحية، فقال لهم: تريدون تعرفون صفته؟ هي في صفة هذا المارِّ في خَلْقَه ولحيته. قال: ولا تُقبل له توبة، وقد كذب لعنه الله، وليس يخرج من قلبٍ سليمِ الإيمان [١].

يقول القاضي عياض المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: مَن سبَّ النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو عابه، أو ألحق به نقصًا في نسبه أو نفسه أو دينه أو خَصلة من خِصاله، أو عرَّض به أو شبَّهه بشيء على طريق السب والازدراء عليه، أو النقص لشأنه أو الغض منه والعيب له- فهو سابٌّ تلويحًا كان أو تصريحًا، وكذلك مَن لعنه أو دعا عليه أو تمنى مَضَرَّةً له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عَبَثَ في جهته العزيزة بسخف من الكلام، أو بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه أو عصمته بشيء من العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه - قُتِلَ.

قال: هذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم وهلمَّ جرًّا [٢].

وقال ابن قدامة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (المغني): «قذف النبي ﷺ وقذف أمه رِدَّةٌ عن الإسلام، وخروجٌ عن الملة، وكذلك سبُّه بغير القذف» [٣].

ثامنًا: بيان سنة الله الماضية في مُوالاة المنافقين بعضهم بعضًا، كما قال سبحانه: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ

(١) هذا كله منقول من كتاب الشفا، للقاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٢١٨).
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض (٢/ ٢١٤).
(٣) المغني، لابن قدامة (٩/ ٨٨).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

فيبين العلماءُ للعامةِ أن كل مَن يتضامن مع مؤذي رسول الله- كما حاول بعضهم في النازلة الأخيرة أن يبذل الأعذار للصحيفة الدانماركية الرقيعة وللساسة الأوربيين الدجاجلة- ومَن تورَّط في الاعتذار لهؤلاء فلا يلومنَّ إلا نفسه إذا ظن به المسلمون ظن السوء بما كَسَبت يداه.

في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢]، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «والذي يميِّز الظنونَ التي يجب اجتنابُها عما سواها أنَّ كلَّ ما لم تُعرف له أمارة صحيحة وسببٌ ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب؛ وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه السترُ والصلاحُ، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظنُّ الفسادِ به والخيانةِ محرمٌ؛ بخلاف مَن اشتهر بين الناس بتعاطي الرِّيبِ والمجاهرةِ بالخبائثِ»[1].

تاسعًا: نشر الفقه المتعلق بهذه المسألة بين الناس- أعني: فقه التوبة-؛ لأن كثيرين يعتقدون أن سابَّ النبيِّ ﷺ لو تاب فما لنا عليه سبيل، إننا نقول: إن سبَّ النبي ﷺ والإساءةَ إليه وانتقاصَه وعيبَه رِدَّة مغلظة، وكفر مبين- سواء صدر من مسلم، أو كافر أصلي، أو مرتد- وهي عند أكثر العلماء لا تؤثر في وجوب حدها توبة؛ لأن الحق قد تعلق بمخلوق، وهو النبي ﷺ، وهو غير موجود الآن بين ظهرانينا- فداه أبي وأمي- وإلحاقُ العيب به عيبٌ للأمة كلها، فمَن تاب وكان

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢).

صادقًا في توبته نفعته توبته عند الله ديانةً، أما حدُّ الدنيا- قضاءً- فلا يسقط.

عاشرًا: نشر فقه الولاء والبراء، وأن نردد على الناس قولَ ربنا جل جلاله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[التوبة: ٢٤] وقول نبينا ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» (١) حتى يعلم كل مسلم أن واجبًا عليه بُغض مَن آذى رسول الله ﷺ والبراءة إلى الله منه، واعتقاد أنه حرب على الدين وأهله؛ وأنه لا يجتمع في قلبه حب رسول الله ﷺ مع مُوالاة من آذاه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢].

هذا وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرسالة الرابعة

سعة الفقه وأثرها في وحدة الأمة[1]

(١) ورقة مقدمة لمنتدى (أسس بناء وحدة الأمة)، قاعة الصداقة، الخرطوم، ١٩ - ٢٠/ ٦/ ٢٠١٠م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فلا زالت وَحدة المسلمين هي الأمل المنشود الذي يسعى لصناعته كل مخلص؛ بعد أن علِم الناس طُرًّا من كتاب ربهم سبحانه وتعالى وسنة نبيهم ﷺ:

- أنها مِنَّةُ الله على عبده ونبيه ومصطفاه ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٢-٦٣].

- وأنها المحقِّقة لمراد ربنا الذي خاطبنا بقوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[آل عمران: ١٠٣] وضدها: الفُرقة والاختلاف الجالب لسخطه جل جلاله ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٥-١٠٧]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تَبْيَضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل البدعة والفرقة»[(١)].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٢).

- وأن المفارقين للدين المباينين لسبيل المؤمنين برِئ منهم رسولُ الله ﷺ بأمر الله؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى الذين تفرقوا واختلفوا في دينهم، وجاء عن غيره أنها نزلت في أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وشرعُه واحدٌ، لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾؛ أي: فِرَقًا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد بَرَّأ رسولَه ﷺ مما هم فيه»[(١)].

- بل منعت الشريعةُ مِنَ العمل الذي ظاهره الخير إذا قُصد به التمييز والتفريق بين المؤمنين؛ وجعلتْ لأصحابه نصيبًا من الذم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨].

- وأنها أمر لازم وقدر مقدور ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٩٢] ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٦).

- وأنها السبيل لنيل رضا الله «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا؛ وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المالِ**» (١).

- وأن الوَحدة مطلوبة حال القتال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف: ٤]، وعند القيام بفرائض الدين ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

- وأن الشريعة جاءت حَاثَّةً على الجماعة في العبادات، ناهيةً عن الفرقة والاختلاف فيها؛ فجمعت الناسَ في حَجِّهم وصيامهم وصلاتهم، وأمرتهم بالشروع فيها في وقت واحد وختامها في وقت واحد؛ وجعلت الاجتماعَ في جوهرها ومظهرها؛ فكان ﷺ يسوِّي أصحابه كما تسوَّى القِداح، ويقول لهم: «**لَتُسَوُّنَّ بَيْنَ صُفُوفِكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفُنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ**»(٢).

دور العلماء والفقهاء في بناء وحدة الأمة:

وهذا الأصل العظيم الذي قررته قواعد الشريعة في نصوصها المتواترة أولى الناس برعايته وأحقهم بتثبيته هم العلماء الذين فَقَّهَهُم اللهُ في دينه؛ وجعلهم حملة

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥)، وأحمد (٨٧٩٩) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٤٣٦)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لواء شريعته، ينفون عن الدين تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، ويردُّون الناس- عند الاختلاف- إلى الأصول المحكمة والهدي المنير.

ولا يتأتى ذلك إلا بمراعاة أمور:

أولًا: تحقيق الإخلاص لله ﷻ:

فما أقبح فقيهًا- سيَّما إذا كان مقتدًى به- أن يكون همُّه تكثيرَ الأنصار والأتباع من حوله، وأن يثبت له جاهَه الديني، ولو كان ذلك على حساب وَحدةِ الأمة وَرَصِّ صفوفها! فتجده يلجأ إلى الشَّاذِّ من الأقوال والساقط من الفتاوى؛ ليصرف وجوه الناس إليه، أو ليجامل ذا سلطان، غير عابئ بما يجره ذلك على الأمة من وبال، وقد قرأنا في سِير الصالحين أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «إني لأمر بالآية من القرآن فأفهمها، فأود أن الناس كلهم فهموا منها ما أفهم»[(١)]، وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «وددتُ أن الناس كلهم تعلموا هذا العلم ولم يُنسب إليَّ منه شيء»[(٢)].

ثانيًا: توحيد المرجعية:

بحيث تكون المرجعية واحدة، لئلا تتشعب بنا الأهواء؛ فيكون مرجعُ هذا ذوقَه أو وَجْدَه، ومرجعُ الآخر ما قال فلان أو فلان من حي أو ميت؛ بل المرجعية: الكتاب والسنة، وما بعدهما تَبَعٌ لهما؛ ما يقطع الطريق على استفحال الخلاف لو حدث، وقد واجه المسلمون أعظمَ محنة حين توفي رسول الله ﷺ؛ دون أن يعيِّن من يقوم بالأمر من بعده؛ واختلف الناس فيمن يكون الخليفة؛ فعصمهم

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٣٥).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١١٩).

اللهُ بالورع والتقوى، حين علموا أن السنة قاضية «بأن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبَّه الله في النار على وجهه، ما أقاموا الدين»[١]، وأن «لأئمةٍ من قريش، إن لهم عليكم حقًّا، ولكم عليهم حقٌّ مثل ذلك، ما إن استُرحموا فرَحموا، وإن عاهدوا وَفَّوْا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين»[٢].

ثالثًا: الحرص على موافقة جمهور العلماء، وعدم تعمد الانفراد بالفتوى:

فيكون الفقيه مع جمهور العلماء وساداتهم من الأولين والآخرين؛ وألا يتعمد الانفراد عنهم في فتواه؛ بل هو مع الناس، خاصة إذا كان الأمر متعلقًا بقضية من قضايا الأمة، وليست نازلةً فردية أو شأنًا خاصًّا، وفي القرآن الكريم: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥]، وكم رأينا من مآسٍ جَرَّتها فتاوى جانبتِ الصواب وأحدثتْ من البلبلة والقلاقل ما الله به عليم؛ في شأن فلسطين وقضايا الجهاد والتكفير وغيرها، وإلى الله المشتكى.

رابعًا: الرجوع إلى الحق متى ما استبان له:

كما فعل الحَبرُ البحرُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حين رجع عن قوله في إباحة المتعة[٣]، لما سمع أن بعض الفسقة قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٩)، عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٠٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) السنن الكبرى، للبيهقي (١٣٩٤٣).

أَقُـولُ لِلشَّـيْخِ لَمَّـا طَـالَ مجلسُـهُ يَا صَاحِ هَلْ لَكَ فِي فَتْوَى ابْنِ عَبَّـاسِ
هَلْ لَكَ فِي رَخْصةِ الأطرافِ آنِسَةٍ تَكُونُ مَثْوَاكَ حَتَّى مَصْدرِ النَّاسِ [١]

وعن قوله: «لا ربا إلا في النسيئة»[٢]، وكما رجع أبو موسى عن فتواه في رَضاع الكبير[٣] وهكذا، وقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابه لأبي موسى: «ولا يمنعنك من قضاء قضيته اليوم فرجعتَ فيه لرأيك وهُديتَ فيه لرشدك أن تراجع الحق؛ لأن الحق قديم، لا يبطل الحق شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»[٤].

خامسًا: عدم الاستحياء من قول الفقيه: لا أدري.

فحيث يشتبه عليه الأمر أو يراه بحاجة إلى مزيد تثبت، فعليه أن يقول: لا أدري، وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٧]، وقال النبي ﷺ «**أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ**»[٥].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) أخرجه البخاري (٢١٧٨).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٦٠٦٨).
(٤) معرفة السنن والآثار للبيهقي (٧/ ٤٥٨).
(٥) أخرجه الدارمي في سننه (١٥٩)، وإسناده معضل.

ومن أقوال السلف وأهل العلم وهديهم في ذلك:

- قال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «لا أدري، نصفُ العلم» [١].
- قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَن ترك لا أدري، أُصيبت مقاتلُه» [٢].
- قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدري»[٣].
- قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مِن العلم قول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم»[٤].
- قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون»[٥].
- قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «خمس إذا سافر فيهن الرجل إلى اليمن لكان عوضًا عن سفره: لا يخشى عبدٌ إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحي أن يتعلم ما لا يعلم، ولا يستحي أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، والصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس ذَوَى الجسد» [٦].
- وقد سئل مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن أربعين مسألة فأجاب في اثنتين، وقال في الباقي: «لا أدري» [٧]

سادسًا: الحرص على اجتماع الناس:

ليعلم الفقيه أن الخلاف شر؛ ودونه ما فعله السيد الجليل عبد الله بن مسعود

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١٨٦).
(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ٥٨).
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٠٠١).
(٤) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ٥٨).
(٥) أخرجه الدارمي في سننه (١٧٦).
(٦) إعلام الموقعين (٢/ ١٢٧).
(٧) أخرجه ابن عبد البر في الانتقاء (ص٣٨).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين صلى خلف عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمنى وقد أتم الصلاة التي قصرها رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعلل ذلك بقوله «الخلاف شر»[١].

سابعًا: مشاورة أهل العلم:

على الفقيه ألا يستنكف من مشورة إخوانه من أهل العلم والنزول على قولهم إذا بدا له أنه الصواب، وأن يرد الفضل إليهم أمام أتباعه وتلاميذه؛ كما فعل غير واحد من الصحابة؛ فهذا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أراد رجمَ امرأة ولدت لستة أشهر فمنعه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجع عن قراره؛ فعن بَعْجَةَ بن زيد الْجُهَنِيِّ، «أن امرأة منهم دخلت على زوجها، وهو رجل منهم أيضًا، فولدت له في ستة أشهرٍ، فذكر ذلك لعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأمر بها أن تُرجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وَقَالَ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] قال: فوالله ما عَبِدَ عُثْمَانُ أن بعث إليها تُرَدَّ»، قال يونس: قال ابن وهبٍ: عَبِدَ: استنكف[٢].

ولَمَّا ارتاعت المرأةُ من عُمَر وسقط جنينُها، فأشار عليه بعض الصحابة أن يضمن الدية، فقال عمر: «صدقتَني»[٣].

ثامنًا: عدم التشنيع على المخالف المخطئ:

على الفقيه ألا يحرص على التشنيع على المخالف المخطئ والدلالة على عوراته، وإحصاء هفواته؛ وإسقاط هيبته من أعين الناس؛ فإن ذلك منافٍ لحقوق

(١) أخرجه أبو داود (١٩٦٠).
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٠/ ٦٥٧).
(٣) أنساب الأشراف (٢/ ١٧٨).

الأخوة الإيمانية؛ فكم من الناس إذا علِم عن فلان خطأ أو زلَّة تحول معه إلى وحش كاسر مملوء بالحقد والانتقام!! وقد كان الصالحون ينكرون على المخطئ دون أن يهدروا حسناته أو ينسوا مناقبه؛ فهذا خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطئ في حروب الردة حين يسبي النساء المسلمات ويتزوج بإحداهن وهي زوجة مالك بن نويرة بعد أن استبرأها بحيضة واحدة، ولم تنقل كتب السِّيَر والمغازي إلا اعتذار خالد بأنه فهِم من قول جماعة مالك بن نويرة أنهم كفروا، فقد كانوا يصرخون: «صبأنا.. صبأنا»، يريدون أننا على دين محمد ﷺ، حيث كان المشركون يسمون المسلم بالصابئ [(١)]، وانتهى الخلاف وحلَّ محلَّه الاتفاق، وسارت سفينة الإيمان بالمؤمنين لا تعرف تعثُّرًا ولا توقُّفًا عن نشر الدين الحق.

تاسعًا: تدريب الطلبة على الخلاف وآدابه:

يحرص الفقيه على أن يشيع بين الناس أن الخلاف قديم، وأن الأنبياء عليهم السلام اختلفوا في بعض موارد الاجتهاد[(٢)]، وأن أصحاب النبي ﷺ قد اختلفوا في حياته[(٣)] وبعد مماته[(٤)] في كثير من المسائل؛ وذلك لئلا تضيق صدور الناشئة إذا رأَوا الخلاف بين أهل العلم في بعض مسائل العلم أو العمل، وعلى الفقيه أن

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٣٤).

(٢) قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. انظر تفسيرها في فتح القدير للشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٥٠٦).

(٣) كما في اختلافهم يوم بدر في شأن الأسرى، واختلافهم في الصلاة يوم بني قريظة، واختلافهم مع عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين تيمم.

(٤) كاختلافهم في موته، وتغسيله، ودفنه، واختلافهم من يكون الخليفة من بعده؟ واختلافهم في قسمة الأراضي المفتوحة وغير ذلك.

يعمد إلى عرض الآراء المختلفة في المسألة الواحدة ليتدرب السامعون على تقبل الخلاف وإعمال العقل في تبيُّن الصواب، دون التأثر بالقائل كائنًا من كان، خلا رسول الله ﷺ، وقد قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما يسرني أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا؛ أَيُّ ذلك أخذتُ به فهو سعة»[(١)].

وعليه أن يشيع بين الناس ويعلمهم أن الخلاف سعة ورحمة إذا كان في حدود آداب الإسلام وأصوله؛ من حيث إنه يتيح- إذا صدقتِ النوايا- تعرُّف جميع الاحتمالات التي يمكن أن يكون الدليل رمى إليها بوجه من وجوه الدلالة؛ وأن فيه رياضة للأذهان، وتلاقحًا للآراء، وفتحًا لمجالات التفكير للوصول إلى سائر الافتراضات التي تستطيع العقول المختلفة الوصول إليها، كما أنه يعدد الحلول أمام صاحب كل واقعة ليهتدي إلى الحل المناسب للحال الذي هو فيه بما يتناسب ويسر هذا الدين الذي يتعامل مع الناس من واقع حياتهم[(٢)].

هذه بعض المعالم التي أراها جديرة بأن تحقق بعض ما نصبو إليه؛ ليكون الفقه الإسلامي- بسعته ومرونته- عامل تجميع للأمة لا عامل تفريق لها. والله المستعان.

(١) أطراف الغرائب والأفراد (٢/ ٥٢٠).
(٢) أدب الاختلاف، للعلواني (٢٣).

الرسالة الخامسة

تجارب (عملية) في القيادة العلمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه الطيِّبين الطاهرين، ومَن تبِعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فإن العلماء هم الجماعة والأمة الوسط والطائفة المنصورة، كما ترجم البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه فقال: «باب: قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وما أمر النبيُّ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم»[(١)].

وقال- أيضًا-: «باب: قول النبِيِّ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ يُقَاتِلُونَ**»، وهم أهلُ العِلم»[(٢)].

ثم أخرج بسنده عن المغيرة بن شعبة، عن النبي ﷺ قال: «**لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**» [(٣)].

فلا خيرَ أعظم من العلم والفقه في الدِّين، قال النبي ﷺ: «**مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْه فِي الدِّينِ**» [(٤)]، وقال ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَآخَرَ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**» [(٥)].

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٠٧).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ١٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠).

(٤)أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٥)أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

وقد بين النبي ﷺ أن بقاء العلم ببقاء العلماء، وذهابه بذهابهم، فروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عَمْرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ؛ وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(١).

وروي- أيضًا- عن عُروة أنه قال: حج علينا عبد الله بن عمرو فسمعته يقول: سمعت النبِي ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْزِعُ العِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ العُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ، يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ**» (٢)، وفي لفظٍ لمسلم: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْتَزِعُ العِلمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا؛ وَلَكِنْ يَقْبِضُ العُلَمَاء؛ فَيَرفَعُ العِلمَ مَعَهُمْ، ويُبقِي في النَّاسِ رُؤُوسًا جُهَّالًا يُفْتُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَيَضَلُّونَ وَيُضلُّونَ**»(٣).

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزمٍ: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء» (٤).

فكيف نستفيد من تجارب علمائنا ونهتدي بها في حياتنا؟ هذا ما نحاول بيانه في هذه الورقات تحت عنوان: (تجارب معاصرة في القيادة العلمية)، وهي تتناول

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٠٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٣).
(٤) صحيح البخاري (١/ ٣١).

المطالب التالية:

أولًا: لماذا لا تفرز الأُمة قيادات علمية حقيقية؟

ثانيًا: نماذج علمية معاصرة.

ثالثًا: الأُمة وإشكالات غياب الرموز العلمية.

رابعًا: الأُمة وآليات صناعة الرموز والقادة.

والله الموفِّق، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

المطلب الأول: لماذا لا تُفرز الأمة قيادات علمية حقيقية؟

للإجابة عن هذا السؤال نحتاج إلى بيان الأسباب السياسية والأمنية من ناحية، والأسباب الإدارية والإعلامية من ناحية أخرى.

أولًا: الأسباب السياسية والأمنية:

١- المضايقات الأمنِية التي تسلطها بعض الأنظمة الحاكمة على العاملين في حقلِ الدعوة والتدريس في المساجد ومنع المنظمات الإسلامية- تونس نموذجًا-؛ ما يجعل وظيفة التربية والتعليم مهمة شاقة، كما أنَّ هذا التضييق الأمني يحرم كثيرًا من طلبة العلم من الاتصال الوثيق بأهلِ العلم والانتفاعِ بهم.

٢- حَذَرُ كثيرٍ من العلماء وتوجُّسُهم من إثارة الرِّيبة والشُّكوك من حولهم؛ أو خوفُهم من انقطاعِ دعوتهم إذا هم توجَّهوا إلى إعداد قياداتٍ بديلةٍ للمجتمع؛ ما جعل تأثير العلماء محدُودًا.

٣- قلة الوعي بضرورة الإصلاح السياسي والتغيير الاجتماعي الواسع؛ فما زال كثير من العاملين بالدعوة- على سعة علمهم الشرعي- متردِّدين في الإسهام المنضبط في الإصلاح السياسي والتنمية الاجتماعية.

٤- الانتماء الضيِّق إلى الجماعات وقلة الهم الإسلامي العام، والانغلاق على العمل لمصلحة جماعة معينة؛ فالملاحظ أن بعض الدعاة لم يتخلصوا من أسر الجماعة والعمل التنظيمي، كما أن بعض العلماء يقصرون اهتمامهم على قلةٍ من

الطلبة ولا يسعون إلى نشر نور العلم بين عامة الناس، مستفيدين من سعة مؤسسات الدولة وفئات المجتمع وشدة حاجة الناس.. والله المستعان.

٥- عدم استقلالية بعض العلماء، ووقوعهم في طرفي التأييد أو المعارضة السياسية، فمن أيَّد رضي وتابع واستغنى غالبًا عن إقامة مؤسسات تعليميةٍ واجتماعيةٍ حرة وفاعلة، وقنع بالموجود، ومن عارض لم يسلم له عمل تغييري كبير، والحكمة تتمثل في مراعاة التوازن في الإصلاح وحسن التناصح والتعليم، وتحقيق المقاصد بالرفق والإقناع والموعظة الحسنة.

ثانيًا: الأسباب الإدارية والإعلامية:

وتتمثل فيما يلي:

١- عدم اهتمام كثيرٍ من العلماء الأفاضل بالنواحي الإدارية والإعلامية، وبعدهم عن مواقع التأثير الإعلامي والقيادة الاجتماعية؛ ما قلَّل من نفوذهم وخبرتهم الإعلامية وقدرتهم الاجتماعية على التغيير.

٢- غياب التخطيط العلمي والإستراتيجي في مجال العمل العلمي والدعوي، فلو توافر التخطيط العلمي والتربوي؛ لكان من أهم الأهداف الموضوعة والمصالح المرجوة: إعداد قيادات علمية تنهض بالمجتمعات المسلمة على بصيرة ووفق خطة علمية واضحة.

٣- ضعف الوعي الإداري والقناعة بدور إعداد القيادات الفكرية والرموز العلمية في إحداث النهضة السياسية والاجتماعية المنشودة.

٤- قلة تعاون العلماء وغياب فقه التناصح بين المؤسسات الإسلامية- على

غرار اختلاف الجماعات الدعوية العاملة- وعدم انتباههم إلى فوائد التنسيق فيما بينهم وثمرات توزيع الأعمال بحسب التخصص والكفاءة.

٥- عدم عناية كثيرٍ من العلماء والدعاة بتقييم تجربتهم العلمية؛ لتصحيح الأخطاء واجتناب الوقوع فيها من جديدٍ، وقد قال النبي ﷺ: «**لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**» [(١)]، وقال معاوية: «لا حكيم إلا ذو تجربة»[(٢)]، وقد سئل أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن معنى قول النبي ﷺ: «**لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»؟ فقال: «إن يقع مرةً في ذنبٍ لا يعد فيه»[(٣)]، وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا يروى على وجهين من الإعراب: أحدهما بضم الغين على مذهب الخبر، ومعناه: أن المؤمن الممدوح هو الكيس الحازم الذي لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد أخرى وهو لا يفطن بذلك ولا يشعر به، وقيل: إنه أراد به الخداع في أمر الآخرة دون أمر الدنيا.

والوجه الآخر: أن تكون الرواية بكسر الغين على مذهب النهي، يقول: لا يُخدعنَّ المؤمن، ولا يؤتينَّ من ناحية الغفلة فيقع في مكروه أو شر وهو لا يشعر، وليكن متيقظًا حذرًا، وهذا قد يصلح أن يكون في أمر الدنيا والآخرة معًا» [(٤)].

وفي الفتح: «فيه تحذير من التغفيل، وإشارة إلى استعمال الفطنة، وذهب أبو عبيد إلى أن معناه: لا ينبغي للمؤمن إذا نُكب من وجه أن يعود إليه[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).

(٢) صحيح البخاري (٨/ ٣١).

(٣) طبقات الحنابلة (١/ ١٢٤)، دار المعرفة – بيروت.

(٤) معالم السنن، للخطابي (٤/ ١١٩)، الناشر: المطبعة العلمية – حلب.

(٥) قال ابن حجر: «وهذا هو الذي فهمه الأكثر ومنهم الزُّهري راوي الخبر، فأخرج ابن حبَّان من =

وقيل: المراد بالمؤمن في هذا الحديث: الكامل الذي قد أوقفته معرفته على غوامض الأمور؛ حتى صار يحذر مما سيقع، وأما المؤمن المغفَّل فقد يُلدغ مرارًا»[١].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال القاضي: «يُروى على وجهين: أحدهما بضم الغين على الخبر، ومعناه: المؤمن الممدوح، وهو الكيس الحازم الذى لا يستغفل فيخدع مرة بعد أخرى ولا يفطن لذلك، وقيل: إن المراد الخداع في أمور الآخرة دون الدنيا، والوجه الثاني: بكسر الغين، على النهي أن يؤتى من جهة الغفلة».

قال النووي: «وفيه أنه ينبغي لمن ناله الضرر من جهة أن يتجنبها؛ لئلا يقع فيها ثانية»[٢].

=

طريق سعيد بن عبد العزيز قال: «قيل للزُّهري لما قدم من عند هشام بن عبد الملك: ماذا صنع بك؟ قال: أوفى عني ديني، ثمّ قال: يا ابن شهاب تعود تدان؟ قلت: لا، وذكر الحديث». فتح الباري لابن حجر، دار المعرفة- بيروت (١٠/ ٥٣٠).

وقد رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء «قال سعيد بن عبد العزيز: قضى هشام عن الزهري سبعة آلاف دينار، وقال: لا تعد لمثلها تدان، فقال: يا أمير المؤمنين، حدثني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**». سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٤٠).

(١) فتح الباري، لابن حجر (١٠/ ٥٣٠).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢٨/ ١٢٥).

المطلب الثاني: نماذج علمية معاصرة

ونتناول أربعة نماذج من القيادات العلمية التي نجحت في قيادة مجتمعها وتركت أثرًا عظيمًا في تاريخ الأمة وحياة الناس: هي نموذج الشيخ ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، والشيخ ابن عاشور مدير جامع الزيتونة ومفتي المالكية بتونس، ونموذج الأمير الخطابي الشيخ المجاهد في المغرب، والشيخ عمر المختار قائد المجاهدين في ليبيا.

أولًا: نموذج ابن باديس:

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (١٣٠٧هـ -١٨٨٩م)، وتوفي سنة (١٣٥٩ هـ-١٩٤٠م)[(١)].

وهو «عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، ولد في قسنطينة، وأتم دراسته في جامع الزيتونة بتونس، وأصدر مجلة الشهاب، واشتغل بالسياسة وصارع الاستعمار الفرنسي، واضطهد وأوذي، وتوفي بقسنطينة، له: « تفسير القرآن الكريم »[(٢)].

ويلاحظ في تجربة عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجزائر أمور:

أولها: دور الأسرة التي تعنى بالعلم والدين في تكوين العلماء وتربية الدعاة:

وذلك بغرس محبة القرآن والسُّنة والعلوم الشرعية والآداب العربية في قلوب

---

(١) وفي معجم المؤلفين، لعمر كحالة (٥/ ١٠٥): عبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ) (١٨٨٧ - ١٩٤٠ م).

(٢) المرجع السابق.

الناشئة، وحسن تربيتهم، وتوفير الشروط المساعدة على نبوغهم ورسوخهم في العلم؛ فقد حفظ القرآن وهو في الثالثة عشرة من عمره، وتعلم مبادئ العربية والعلوم الإسلامية على يد الشيخ «أحمد أبو حمدان الونيسي» بجامع سيدي محمد النجار، ثم سافر إلى تونس في سنة (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، وانتسب إلى جامع الزيتونة؛ ما فتح له أبواب العلم النافع على مصراعيه.

ثانيها: أثر القدوة وصحبة العلماء في تكوين القيادات العلمية:

فقد تلقَّى ابن باديس العلوم الإسلامية على جماعة من أكابر علماء الزيتونة، أمثال العلامة محمد النخلي القيرواني المتوفى سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الذي كان له تأثير كبير في التكوين اللغوي لعبد الحميد ابن باديس، والشغف بالأدب العربي، والشيخ محمد الخضر الحسين، الذي هاجر إلى مصر وتولى مشيخة الأزهر.

وبعد أربع سنوات قضاها ابن باديس في تحصيل العلم بكل جدٍّ ونشاط، تخرج في سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) حاملًا شهادة «التطويع» ثم رحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، كما اتصل بعدد من علماء مصر والشام، وتتلمذ على الشيخ حسين أحمد الهندي الذي نصحه بالعودة إلى الجزائر واستثمار علمه في الإصلاح؛ إذ لا خير في علمٍ لا ينفع الناس، فعاد إلى الجزائر، وفي طريق العودة مرَّ بالشام ومصر واتصل بعلمائهما، واطَّلع على أحوالهم الاجتماعية والثقافية والسياسية؛ ما وسَّع مداركه وزاد من وعيه بأساليب الإصلاح، فقد انتفع ابن باديس بصحبة العلماء ونصائحهم وتجاربهم في أعماله الإصلاحية.

ثالثها: قناعة ابن باديس بأن الإصلاح يبدأ بالتربية والتعليم:

فتلك هي الوظيفة التي بعث بها النبي ﷺ وورَّثها من جاء بعده من المصلحين، كما قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال جلّ جلاله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقد جعل النبي ﷺ الدعوة الإسلامية قائمةً على أساس التربية والتعليم، وعدَّ (الهدى والعلم) غيثًا نافعًا يحيي القلوب والعقول، كما روى البخاري ومسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ**[(١)] **فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»[(٢)].

فقد عمل عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ على نشر التعليم الإسلامي في

---

(١) وفي روايةٍ لمسلم (٤٢٣٢): «**فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ**».
(٢) أخرجه البخاري (٧٧).

الجزائر؛ حتى ختم تفسير القرآن بالجامع الأخضر بقسنطينة بعد خمسة وعشرين عامًا، فاحتفلت الجزائر بختم هذا التفسير في الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٥٧هـ (١٢ من يونيو ١٩٣٨م).

رابعها: دعوته إلى العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى:

كانت دعوته هي العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى وتطهير العقائد والأفكار من الأوهام والأباطيل التي علقت بها، ومحاربة الفرق الضالَّة التي نشرت الخرافات وأعانت المستعمر، وهذا من توفيق الله ﷻ لابن باديس؛ فالإصلاح لا يتحقق إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ورحم الله السعدي حيث قال: «كمال العبد متوقف على الحكمة؛ إذ كماله بتكميل قوتيه: العلمية والعملية.. وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، ومن دون هذا لا يمكنه ذلك»[(١)].

خامسها: عنايته بتربية الشباب وتعليمهم:

لم يقتصر على تعليم الكبار، بل عمد ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى تعليم الصغار بعد خروجهم من كتاتيبهم، ثم أسس بعد بضع سنوات مع جماعةٍ من أصحابه مكتبًا للتعليم الابتدائي في مسجد سيدي بومعزة، ثم انتقل إلى مبنى الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ثم تطور المكتب إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي أنشئت في (رمضان ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م)، وتكونت

(١) تفسير السعدي (ص ١١٥).

هذه الجمعية من عشرة أعضاء برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس [١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثانيًا: نموذج ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بتونس سنة (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م)، وتوفي سنة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

وهو «محمد الطاهر ابن عاشور، رئيس المفتين المالكيين، بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها.. عُيِّن (عام ١٩٣٢م) شيخًا للإسلام مالكيًّا».

وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة؛ من أشهرها: (مقاصد الشريعة الاسلامية)، و(أصول النظام الاجتماعي في الاسلام) و(التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، و(الوقف وآثاره في الاسلام)، و(أصول الإنشاء والخطابة)، و(موجز البلاغة)، ومما عني بتحقيقه ونشره: (ديوان بشار بن برد) أربعة أجزاء، وكتب كثيرًا في المجلات، وهو والد محمد الفاضل ابن عاشور»[٢].

ويلاحظ في تجربة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ **ما يلي:**

أولًا: أثر الأسرة العلمية العريقة في نشأته ونبوغه:

وقد سبقت هذه الملاحظة في نموذج ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فالأسرة هي المحضن

---

(١) راجع (ابن باديس: الإسلام ديننا والعربية لغتنا)، (في ذكرى ميلاده: ١١ ربيع الآخر ١٣٠٧هـ)، سمير حلبي.

(٢) الأعلام، للزركلي (٦/ ١٧٤).

التربوي الأول ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقد قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله ﷻ في مريم عليها السلام: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]: «المراد بالقانتين: المكثرون من العبادة؛ والمعنى: أنها كانت سليلة قومٍ صالحين؛ أي: فجاءت على طريقة أصولها في الخير والعفاف!

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه!»[(١)].

ثانيًا: دخول ابن عاشور إلى الإصلاح من باب التعليم:

فالتعليم قمين بتصحيح المفاهيم وغرس القيم الإسلامية، وإعداد قيادات المستقبل؛ فإذا صلح التعليم تحققت النهضة العلمية والتنمية الاجتماعية؛ ولذلك كان من أعظم أعمال ابن عاشور: إصلاح التعليم في الزيتونة والصادقية، وقد شهد بذلك محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «إن مصلحي الزيتونة سبقونا إلى إصلاح التعليم؛ حتى كان ما يجرون عليه في جامع الزيتونة خيرًا مما عليه أهل الأزهر»[(٢)].

ثالثًا: عناية ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتصنيف:

أَلَّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤلفات قيمة انتفع بها الناس في العالم الإسلامي، خاصة تفسيره القيم: (التحرير والتنوير).

---

(١) التحرير والتنوير- الدار التونسية للنشر- تونس (٢٨/ ٣٧٨). والشعر لزهير من أبياته السائرة:

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمْ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلَامُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ!

وَهَلْ يَحْمِلُ الخَطِّيُّ إِلَّا وَشِيجهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ!

(٢) الطاهر ابن عاشور: صدق الله وكذب بورقيبة، مصطفى عاشور.

رابعًا: حفاظه على هيبة الفتوى واستقلالها، وصدعه بالحق:

ومن مواقفه الجليلة المشهورة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رفضه إصدار فتوى تبيح للتونسيين الفطر في رمضان، وكان ذلك عام (١٣٨١هـ/ ١٩٦١م) عندما دعا الرئيس التونسي السابق «بورقيبة» العمال إلى الفطر في رمضان بدعوى زيادة الإنتاج، وطلب من الشيخ ابن عاشور أن يفتي في الإذاعة بما يوافق هذا، لكن الشيخ صرح في الإذاعة بما يريده الله تعالى، بعد أن تلا آية الصيام، وقال بعدها: «صدق الله وكذب بورقيبة»! فخمد هذا التطاول المقيت وهذه الدعوة الباطلة بفضل مقولة ابن عاشور[(١)].

ثالثًا: نموذج الأمير الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد ولد الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بالمغرب سنة (١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م)، وتوفي سنة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م).

وهو «محمد بن عبد الكريم الريفي الخطابي: زعيم الثورة الريفية المعروفة باسمه في شمالي المغرب.. ولد في بلدة (أجدير) قرب الحسيمة من الريف، في بيت علم وجهاد، من قبيلة ورياغل من كبريات القبائل البربرية في جبال الريف، وحفظ القرآن وبعث به والده إلى (القرويين) بفاس، فتعلم وعاد إلى الريف وأقام في (مليلة) فولي قضاءها... وامتد احتلال الإسبان من مليلة وتطوان إلى (شفشاون) فأظهر عبد الكريم- والد الخطابي- معارضته لهم، وكان من أعيان القوم؛ فانتقم الإسبان منه بعزل ابنه محمد واعتقاله في سجن (كبالرزا) سنة

(١) الطاهر ابن عاشور: صدق الله وكذب بورقيبة، مصطفى عاشور.

١٩٢٠م، وأراد (محمد) الفرار من المعتقل فسقط وكسرت ساقه، وأطلق، فجمع أنصارًا من ورياغل (قبيلته)، وقد آلت إليه زعامتها بعد أبيه، وقاتل الإسبان، فظفر في معركة (أنوال) من جبال الريف، في يوليو ١٩٢١م (أواخر ١٣٣٩ هـ)، وتتابعت معاركه معهم، فاحتل شفشاون (١٩٢٥م)، وحاول احتلال تطوان وأرسل من يهدِّد (تازة) وقُدِّر جيشه بمائة ألف.

وأنشأ جمهورية الريف، وخاف الفرنسيون امتداد الثورة إلى داخل (المغرب) فحالفوا الإسبان، وأطبقت عليه الدولتان، فاستسلم مضطرًا إلى الفرنسيين في ٢٥ من مايو سنة ١٩٢٦م (١٢ ذي القعدة ١٣٤٤هـ) بعد أن وعدوا بإطلاقه، ولكن هذا الوعد- كما تقول جريدة لوموند الفرنسية- لم يوف به، كما لم يوف بالوعد لعبد القادر قبل خمس وسبعين سنة.

ونفوه مع أخٍ له وبعض أقربائهما إلى جزيرة (رينيون) في بحر الهند، شرقي إفريقية حيث مكثوا عشرين عامًا، وأريد نقلهم إلى فرنسا (سنة ١٩٤٧م - ١٣٦٦هـ)، فلما بلغوا (السويس) كان شبابٌ من المغاربة قد هيؤوا لهم أسباب النزول من الباخرة فنزلوا واستقروا في القاهرة، وتوفي بها» [(١)].

ويلاحظ في تجربة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ما يلي:

أولًا: انتفاعه بالمركز الاجتماعي لأسرته:

ما يؤكد ما سبق في تجربتي ابن عاشور وابن باديس؛ فقد ولد الأمير الخطابي في بلدة أغادير لأبٍ يتولى زعامة قبيلة بني ورياغل أكبر قبائل البربر في بلاد

(١) الأعلام، للزركلي (٦/ ٢١٦-٢١٧.)، وللدكتور جلال يحيى كتاب (عبد الكريم الخطابي) طبع بالقاهرة.

الريف، فحفظ القرآن الكريم صغيرًا، ثم أرسله أبوه إلى جامع القرويين بمدينة فاس لدراسة العلوم العربية والدينية، ثم التحق بجامعة سلمنكا بإسبانيا، فحصل منها على درجة الدكتوراه في الحقوق، ثم عُيِّن قاضيًا بمدينة مليلة التي كانت خاضعة لإسبانيا[١].

ثانيًا: أثر الوعي الجامع بين العلوم الشرعية والثقافة العصرية في نجاح ثورة الخطابي:

ظل الرجل يجاهد الإسبان، ويحقق الكثير من النجاحات والانتصارات حتى تكالب عليه الفرنسيون والإسبان؛ فتم نفيه، ولكنَّ أثره كان بالغًا في بلاد المغرب ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

رابعًا: نموذج عمر المختار:

ولد عمر المختار رَحِمَهُ ٱللَّهُ بليبيا سنة (١٢٧٤هـ - ١٨٦١م)، وتوفي سنة (١٣٥٠هـ -١٩٣١م)[٢]، وهو «عمر بن مختار بن عمر المنفي؛ أشهر مجاهدي طرابلس الغرب في حربهم مع المستعمرين الإيطاليين، نسبته إلى قبيلة «المنفة» من قبائل بادية برقة، ولد في البطنان (ببرقة) وتعلم في الزاوية السنوسية بالجغبوب، وأقامه محمد المهدي الإدريسي شيخًا على «زاوية القصور» بالجبل الأخضر بقرب المرج.

وسافر معه إلى السودان سنة ١٣١٢ هـ، فأقيم بها شيخًا لزاوية «كلك» إلى سنة ١٣٢١ هـ، وعاد إلى برقة شيخًا لزاوية القصور، فأقام إلى أن احتل الإيطاليون مدينة بنغازي (سنة ١٣٢٩ هـ)، فكان في طليعة الناهضين للجهاد.

---

(١) راجع: الخطابي أمير ثائر ودولة ناشئة، (في ذكرى معركة أنوال: ٢٥ شوال ١٣٣٩هـ)، مصطفى عاشور.

(٢) وفي الأعلام للزركلي (٥/ ٦٥): عمر المختار (١٢٧٥ - ١٣٥٠هـ = ١٨٥٨ - ١٩٣١م).

وطالت الحرب، وتتابعت المعارك، ومنطقة المختار ثابتة منيعة، وتهادن الإيطاليون والطرابلسيون سنة ١٣٤٠ هـ، ودب الخلاف في زعماء طرابلس وبرقة، وتجددت المعركة مع الإيطاليين، ونفض الأدارسة يدهم منها، فتولى عمر قيادة «الجبل الأخضر» وتلاحقت به القبائل، واتفق الرؤساء على أن يكون القائد العام والرئيس الأعلى للمجاهدين.

وهاجمتهم القوى الايطالية، فردوا هجومها، وغنموا منها آلات حربية ومؤنًا غير قليلة، وأشهر ما نشب من المعارك معركة «الرحيبة»، و«عقيرة المطمورة» و«كرسة»؛ وهي أسماء أماكن في الجبل الأخضر، نسبت إليها تلك الوقائع.

ويقول غراسياني Graziani القائد العام الإيطالي في بيان له عن الوقائع التي نشبت بين جنوده والسيد عمر المختار: إنها «كانت ثلاثًا وستين ومائة معركة خلال عشرين شهرًا»، هذا عدا ما خاضه المختار من المعارك خلال عشرين سنة قبلها، وبينما هو في سريَّة من رجاله، نحو خمسين فارسًا، بناحية «سلنطة» بالجبل الأخضر، يستكشف مواقع العدو، إذ بقوة إيطالية تحيط به، فقاتلها، واستشهد أكثر من معه، وأصيب بجراح، وقتل جواده، فانقضَّ عليه بعض الجنود فأسروه، وهم لا يعرفونه، ثم عرف وأرسل إلى سوسة، ومنها أركب الطرَّاد «أوسيني» إلى بنغازي، وسجن أربعة أيام، وسئل عن أعماله فأجاب بالإيجاب غير هيَّابٍ، فقتل شنقًا في مركز «سلوق» ببنغازي، وأخباره كثيرة، بعضها مدوَّن، وممن رثاه: الشاعران شوقي، ومطران»[1].

(١) الأعلام، للزركلي (٥/ ٦٥-٦٦)؛ وكتاب «عمر المختار للسيد أحمد محمود»، طبع مصر سنة ١٣٥٣ هـ.

وهذه ملامح بارزة في حياة عمر المختار:

أولًا: دور أسرته الحريصة على تعليمه في إعداده وصحبته للعلماء؛ ليكون من أعظم قيادات المجتمع الليبي؛ فقد عهد به أبوه إلى السيد حسن الغرياني شيخ زاوية جنزور (التابعة للطريقة السنوسية) لتربيته وتحفيظه القرآن، وعند وفاة الوالد عام ١٨٧٨م في رحلة الحج أوصى من حوله بأن يرعى هذا الشيخ أولاده من بعده، فقام الشيخ حسن الغرياني بما عهد إليه خير قيام.

ثانيًا: أثر العلم في تكوين القيادات:

فقد قام الشيخ حسن الغرياني بإرسال عمر المختار وله ستة عشر عامًا إلى معهد زاوية الجغبوب مع أولاده؛ ليتعلم في هذا المعهد السنوسي العلوم الشرعية كافة، فتلقى القرآن وعلومه على يد الشيخ الزروالي المغربي، ودرس على سائر مشايخ المعهد مجموعة من العلوم الشرعية وغيرها، وقد كان نهج التعليم في المعهد يعتمد على أن يقوم الدارس بأداء بعض المهن اليدوية؛ مثل: النجارة، والحدادة؛ وقد تميز عمر المختار في هذه الحرف وفي ركوب الخيل على سائر إخوانه بالمعهد، وتميز أيضًا بشخصيته القيادية واتزان كلامه، مع تواضعه وتلقائيته ونقاء سريرته، وقد ساعدت صفاته على توسيع دائرة اتصالاته، واكتساب حب كل من تعامل معهم وتقديرهم من خلال المهام الكثيرة التي قام بها، وقد انقطع عمر المختار عن مواصلة تعليمه نحو سنة ١٨٨٦م؛ وذلك بسبب إحساسه بأن وطنه وقومه في حاجة إلى عمله وجهاده.

ثالثًا: الجهاد ضد المستعمر ثمرة الغرس الطيب:

قاد عمر المختار المجاهدين في ليبيا، ووفقه الله ﷻ أن يُلحق بالإيطاليين خسائر

فادحة وضربات موجعة، كما استطاع أن يلفت أنظار العالم إلى قضيتهم، وقد سعت إيطاليا بكل قوتها وجبروتها إلى تصفية عمر المختار ورفاقه، حتى نجحت في أسره في ٢٨ من ربيع الآخر (١٣٥٠هـ -١١ من سبتمبر ١٩٣١م) بعد أن أصيب فرسه، وسقط على الأرض جريحًا، وبعد محاكمة صورية سريعة لم تدم أكثر من ساعة، صدر الحكم بإعدامه، وتم تنفيذ الحكم في صباح الرابع من جمادى الأولى سنة (١٣٥٠هـ -١٦ من سبتمبر ١٩٣١م) أمام جمهور غفير من أبناء البلاد؛ سيقوا قسرًا ليشاهدوا عملية إعدام شيخ المجاهدين الذي كان عمره قد تجاوز الثمانين.

ولكن جذوة الجهاد لم تنطفىء إلى نهايات الحرب العالمية الثانية (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م إلى ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م)، حتى تم خروج آخر جندي إيطالي من ليبيا في (١٩ من المحرم ١٣٦٢هـ/ ٢٥ من يناير ١٩٤٣م)[1].

والخلاصة: أنه يستفاد من هذه النماذج العلمية المعاصرة: (ابن باديس في الجزائر، وابن عاشور في تونس، والخطابي في المغرب، وعمر المختار في ليبيا):

أولًا: أنه لا صلاح للفرد ولا للمجتمع إلا بالتربية والتعليم، والدعوة الحكيمة وإعداد قادة المجتمع من العلماء الربانيين والدعاة الموفقين.

وثانيًا: أن الأسرة الصالحة هي اللبنة الأولى في إعداد العلماء الذين يكونون قدوة للناس وقادة لهم.

وثالثًا: أن النهضة الإسلامية لا تتحقق في مجتمعاتنا إلا إذا وُجدت القيادات العلمية الصادقة العاملة على تنمية مجتمعاتها المسلمة على بصيرة.

---

(١) مقال: الفاشية تحتل ليبيا، (في ذكرى احتلال ليبيا: ١١ من شوال ١٣٢٩هـ)، سمير حلبي، عبر موقع إسلام أون لاين.

المطلب الثالث: الأمة وإشكالات غياب الرموز العلمية

أ) أدى غياب القيادات العلمية في إدارة مجتمعاتنا المسلمة إلى أن يُملأ هذا الفراغ بقياداتٍ ليس لها كفاءة علمية ولا إدارية، وليس لها- غالبًا- قبول اجتماعي، كما تنقصها الأمانة والورع، وليس لها من بضاعة إلا الولاء الحزبي والسياسي، وهذا مشاهَد في كثير من الدول الإسلامية، والله المستعان.

ب) لقد أحدث غياب القيادات العلمية هوة حالت بين العلماء وبين قيادة المجتمع وإدارة مؤسساته؛ فالملاحظ في مجتمعاتنا العربية أن مَن تقدم الصفوف- ولو لم يكن له كفاءة- قُدِّم ليقود الناس بمشروعه؛ وهذا سر تسلُّق التجارب القومية والاشتراكية والعلمانية في العالم الإسلامي؛ فقد تقدم أصحابها في غياب منافسة العلماء على مواقع التأثير والقرار؛ فصاروا بإقدامهم ومبادرتهم قادةً للناس في سياستهم واجتماعهم، ومكنوا لمشاريعهم بالتحالفات السياسية حينًا من الدهر، وهذه عبرة لأهل العلم والدعوة؛ فهم المؤتمنون على قيادة الناس وهدايتهم.

ج) لقد تسبب غياب الرموز العلمية في انحسار دور العلماء اجتماعيًّا وسياسيًّا ليقتصر- في الغالب- على أوساط المتدينين ورواد المساجد؛ ما جعل كثيرًا من العلماء في العالم الإسلامي بمعزلٍ عن قوى التأثير الاجتماعي ومراكز اتخاذ القرار السياسي!

د) إن تقصير بعض العلماء في بناء مؤسسات المجتمع وإصلاحها تعليميًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا جعل منهج العلماء يكتفي غالبًا بردود الأفعال وما يشبه سياسة إطفاء الحرائق، وأما السَّبق إلى صناعة القادة والإصلاح السياسي والإعلامي وأخذ المبادرات الاجتماعية الإصلاحية فأقل من القليل.

المطلب الرابع: الأمة وآليات صناعة الرموز والقادة

أ) من الناحية الإدارية والإعلامية:

١) حسن اختيار مَن يُرشَّح من طلبة العلم ليكون من القيادات العلمية للمجتمع، واستحضار حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**»[(١)]، وفي روايةٍ: «**تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ: خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ**»[(٢)].

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»[(٣)]، وفي روايةٍ لمسلم: «**تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً**»[(٤)].

٢) تربية طلبة العلم- المرشَّحين لقيادة المجتمع- على خدمة الناس ورعايتهم وبذل المعروف إليهم؛ ليكونوا رحمةً لأمَّتهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤٦٢٠).

٣) وضع معايير علمية وتربوية لهذا الاختيار؛ حتى لا يرشَّح من ليس له صدق في خدمة الدعوة ورعاية الناس؛ فيكون مشروع فتنة للناس، كما هو مشاهد في بعض القيادات الإسلامية التي فتنت مجتمعها بالفتاوى المشبوهة والمصالح الموهومة، ولنا في السودان تجربة مريرة، والله المستعان.

٤) مراعاة التوازن في التمكُّن من العلوم الإسلامية وحسن الاطلاع على العلوم العصرية.

٥) إقامة دورات مكثفة للقيادات المرشحة في الإدارة والإعلام والعلوم المعاصرة.

٦) الاستفادة من بعض التجارب الإسلامية (مثل: تجربة الكويت في تكوين القيادات)، مع العمل على التقييم السنوي.

٧) الدعوة لإقامة مؤسسة خاصة بتكوين القيادات الإسلامية وتدريبها ورعايتها، (على نمط معهد تأهيل العلماء في موريتانيا على سبيل المثال).

٨) اعتماد إدارة توجيه علمية راشدة (من أمثال العلامة الدَّدُو)؛ لإنجاح هذه التجربة.

٩) توحيد المناهج الدراسية في مؤسَّسات تكوين القيادات الإسلامية.

١٠) اعتماد وقف لضمان ميزانيات تسيير سنوية.

ب) من الناحية العلمية:

١) تربية العلماء (العاملين) والقادة (المصلحين).

٢) الاهتمام بالبناء الفكري والسياسي.

٣) إحياء قيمة القدوات؛ وذلك بربط القادة المرشَّحين بكبار العلماء.

ج) من الناحية الاجتماعية:

١) تقوية العلاقة بين القادة المرشَّحين وقضايا الأمة.

٢) العناية بهمِّ الإصلاح الاجتماعي.

٣) اعتماد الخدمات الاجتماعية مجالًا للدعوة والإصلاح؛ فالخدمة العامة من أعظم أبواب القبول في المجتمع، وهي مفتاح القلوب والعقول؛ فقد قالت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- تثني على أنواع الخدمات الاجتماعية التي كان يقدِّمها النبي ﷺ إلى الناس قبل الإسلام: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق!»[1].

(١) أخرجه البخاري (٣).

الخاتمة

كان للعلماء في السودان -بحمد الله ﷻ- بعض التوفيق في الخدمات العلمية والاجتماعية:

١) من حيث نبذ الفرقة والتنازع بين الدُّعاة، وجمع كلمتهم على ما ينفع الأمة ويحفظ هويتها.

٢) وتوعية المجتمع السوداني بالدروس والكتب والدورات والمؤتمرات ووسائل الإعلام المتاحة.

٣) علاوة على إقامة بعض المؤسسات التعليمية الخيرية (مثل: منظمة المشكاة الخيرية)، والإعلامية في الصحافة (صحيفة المحرر، ومجلة اللواء بالتعاون مع وزارة الدفاع السودانية)، والشبكة الدولية للمعلومات (شبكة المشكاة الإسلامية)، والإذاعة (إذاعة طيبة)، مع الإعداد لانطلاق بث (قناة طيبة) الفضائية- إن شاء الله- بإشراف بعض العلماء والدعاة.

وهذه المشاريع الاجتماعية في السودان قد مكَّنت العلماء- بعون الله وفضله- من أداء بعض الواجب في التوجيه العلمي والإصلاح الاجتماعي والسياسي.

نسأل الله ﷻ المزيد من فضله وتوفيقه وعونه جل جلاله.

وهذه التجربة السودانية تؤكِّد كذلك ثمرة الأخذ بالتربية والتعليم واعتماد الخدمات الإعلامية والاجتماعية في قيادة المجتمع، والله الموفِّق، نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

الفهرس

محتويات الكتاب ٥
مقدمة ٧

الرسالة الأولى: (دور العلماء في تعزيز الهوية والنهوض بالأمة)

تمهيد ١٣
المطلب الأول: من العلماء؟ ١٤
المطلب الثاني: ما الهوية؟ ١٥
المطلب الثالث: شواهد تاريخية على دور العلماء في حفظ الهوية ١٨
المطلب الرابع: ما القضايا التي ينبغي التركيز عليها لحفظ هوية الأمة في زماننا؟ ٢٣
أولًا: التذكير بوجوب الدعوة إلى الله تعالى ٢٣
ثانيًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ٢٤
ثالثًا: تمييز العلاقة بين الحاكم والمحكوم وفق أدب القرآن والسنة. ٢٦
رابعًا: وجوب الحكم بما أنزل الله. ٢٨
خامسًا: التأكيد على وجوب الوحدة بين المسلمين. ٣٠
سادسًا: العودة إلى مصطلحات القرآن في تصنيف الناس. ٣٠
سابعًا: بيان عدل الإسلام في معاملة غير المسلمين. ٣٢
ثامنًا: التذكير الدائم بالقيم الأخلاقية والمعايير الحضارية في رسالة الإسلام. ٣٣
تاسعًا: التحذير من الغلو والتقصير. ٣٤
عاشرًا: التفريق في خطابنا بين الإرهاب الممنوع والجهاد المشروع. ٣٤

الرسالة الثانية: (دور علماء الأمة في النوازل المعاصرة)

تمهيد ٣٩

المطلب الأول: دور العلماء في توعية الأمة بخطر التحالف الصهيوني الصليبي..... ٤٣
المطلب الثاني: دور العلماء في الدفاع عن العراق المحتل ٤٤
المطلب الثالث: دور العلماء في الحفاظ على المقدسات الإسلامية في فلسطين ٤٥
المطلب الرابع: دور العلماء في الدفاع عن النبي ﷺ ضد الرسوم المسيئة ٤٦
المطلب الخامس: دور العلماء في التصدي لمنع الاستنساخ..... ٤٧
المطلب السادس: دور العلماء في بيان حق الأمة في الدفاع عن نفسها ٤٨
المطلب السابع: دور العلماء في الحفاظ على التوازن في الموقف من الجهاد ٤٩
المطلب الثامن: دور العلماء عامة والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين خاصة في نصرة غزة ... ٥٠

الرسالة الثالثة: مقام النبوة بين تعظيم المحبين وإساءة المبغضين ـ دور علماء الأمة وفقه المواجهة

المطلب الأول: مكانة العلماء في الأمة..... ٥٣
المطلب الثاني: دور علماء الأمة وفقه المواجهة ٥٧
أولًا: بيان مكانة النبي ﷺ في دين الإسلام. ٥٨
ثانيًا: بيان الخصائص التي حبا الله بها نبينا ﷺ ٥٩
ثالثًا: بيان مكارم الأخلاق ومحاسن العادات التي جبل عليها ﷺ..... ٦٠
رابعًا: بيان واجب حكام المسلمين في حماية الجناب النبوي. ٦١
خامسًا: التركيز في أن الطعن في رسول الله ﷺ طعن في الرسالة..... ٦٣
سادسًا: التذكير بالشواهد التاريخية الموجبة لقتل ساب النبي ﷺ ومنتقصه ومؤذيه ٦٣
سابعًا: مواجهة من يرمي العلماء المعاصرين بالتشديد في هذا الأمر. ٦٥
ثامنًا: بيان سنة الله الماضية في موالاة المنافقين بعضهم بعضًا. ٦٦
تاسعًا: نشر الفقه المتعلق بهذه المسألة بين الناس؛ أعني فقه التوبة. ٦٧
عاشرًا: نشر فقه الولاء والبراء..... ٦٨

الرسالة الرابعة: (سعة الفقه وأثرها في وحدة الأمة)

تمهيد ٧١

دور العلماء والفقهاء في بناء وحدة الأمة ٧٣

أولًا: تحقيق الإخلاص لله ﷻ ٧٤

ثانيًا: توحيد المرجعية ٧٤

ثالثًا: الحرص على موافقة جمهور العلماء، وعدم تعمد الانفراد بالفتوى ٧٥

رابعًا: الرجوع إلى الحق متى ما استبان له ٧٥

خامسًا: عدم الاستحياء من أن يقول الفقيه: لا أدري ٧٦

سادسًا: الحرص على اجتماع الناس. ٧٧

سابعًا: مشاورة أهل العلم. ٧٨

ثامنًا: عدم التشنيع على المخالف المخطئ. ٧٨

تاسعًا: تدريب الطلبة وتعليم الناس الخلاف وآدابه... ..... ٧٩

الرسالة الخامسة: تجارب عملية في القيادة العلمية

تمهيد ٨٣

المطلب الأول: لماذا لا تفرز الأمة قيادات علمية حقيقية؟ ٨٦

أولًا: الأسباب السياسية والأمنية ٨٦

ثانيًا: الأسباب الإدارية والإعلامية. ٨٧

المطلب الثاني: نماذج علمية معاصرة ٩٠

أولًا: نموذج ابن باديس ٩٠

ملامح بارزة في حياة ابن باديس ٩٠

أولًا: دور الأسرة التي تعنى بالعلم والدين في تكوين العلماء وتربية الدّعاة . ٩٠

ثانيًا: أثر القدوة وصحبة العلماء في تكوين القيادات العلمية ٩١

ثالثًا: قناعة ابن باديس بأن الإصلاح يبدأ بالتربية والتعليم. ٩٢

رابعًا: دعوته إلى العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى..... ٩٣
خامسا: عنايته بتربية الشباب وتعليمهم..... ٩٣
ثانيًا: نموذج ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٩٤
ملامح بارزة في حياة ابن عاشور..... ٩٤
أولًا: أثر الأسرة العلمية العريقة في نشأته ونبوغه..... ٩٤
ثانيًا: دخول ابن عاشور إلى الإصلاح من باب التعليم ٩٥
ثالثًا: عناية ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكتابة المؤلّفات القيّمة ٩٥
رابعا: حفاظه على هيبة الفتوى واستقلالها، وصدعه بالحق..... ٩٦
ثالثًا: نموذج الأمير الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٩٦
ملامح بارزة في حياة الأمير الخطابي..... ٩٧
أولًا: انتفاعه بالمركز الاجتماعي لأسرته ٩٧
ثانيًا: أثر الوعي الجامع بين العلوم الشرعية والثقافة العصرية في نجاح ثورة الخطابي ٩٨
رابعًا: نموذج عمر المختار..... ٩٨
أولًا: دور أسرته الحريصة على تعليمه في إعداده وصحبته للعلماء..... ١٠٠
ثانيًا: أثر العلم في تكوين القيادات. ١٠٠
ثالثًا: الجهاد ضد المستعمر ثمرة الغرس الطيّب. ١٠٠
المطلب الثالث: الأمة وإشكالات غياب الرموز العلمية ١٠٢
المطلب الرابع: الأمة وآليات صناعة الرموز والقادة..... ١٠٣
أ – من الناحية الإدارية والإعلامية. ١٠٣
ب – من الناحية العلمية ١٠٤
جـ – من الناحية الاجتماعية ١٠٤
خاتمة ١٠٧
الفهرس ١٠٩

تم بحمد الله